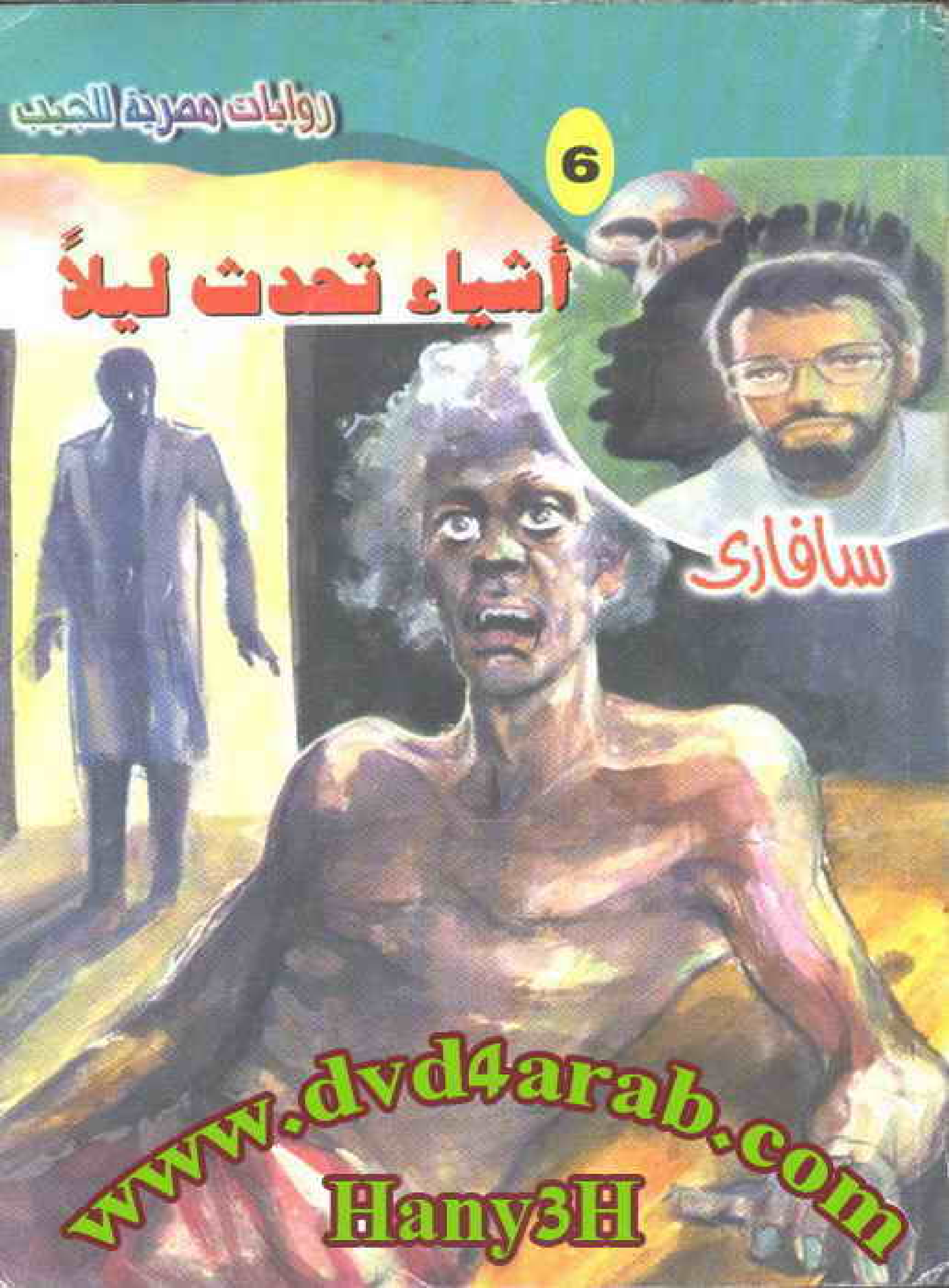


روايات مصرية للجيب
6
أشياء تحدث ليلاً
سافاري
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقـــدمـة

(سـافارى) مصـطلح غربى تـم تحريفه عن كلمـة (سافريَة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عـن رحـلات صـيد الوحوش فى أدغـال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سـافارى) التـى سنقابلها ها هنا كـانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابـات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنـا الـذى سنقابله دومـا ، ونألفـه ، ونتعلـم أن نحبه هـو د. (عـلاء عبد العظيـم) .. شـاب مصـرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاتـه بعيدًا وسط أدغـال (الكـاميرون) ، وفـى بيئـة غريبـة وأمـراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفـى هذه الروايـات نقرأ مذكـرات د. (عــلاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضـارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسـات القاتلـة .. والسـحرة المجـانين .. وأكلـة لحـوم البشـر .. والمرتزقـة الذيـن لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلمـاء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكـى يستطيع فـى الوقت ذاتـه أن يظـل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السـافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ ـ فصل عن الأشياء التى تحدث ليلاً ..

ثمة أشياء وأشياء ..

أشياء لا تحدث إلا نهارًا ، وأشياء لا تحدث إلا ليلاً ..

تلك الأشياء الأخيرة تتباين فيما بينها .. لكننا نجد منها المخيف والمفزع والمثير للتقزز والبشع والممنوع .. هكذا شأنها ، وإلا فلماذا لا تحدث إلا ليلاً ؟

أشياء تحدث ليلاً ..

★ ★ ★

ثمة أشياء وأشياء ..

أشياء نعرف عنها كل شىء ، وأشياء لا نعرف عنها أى شىء ..

تلك الأخيرة تتباين فيما بينها .. لكنها تثير فى النفس قشعريرة باردة ككل ما نجهل .. وهى عين نظرة الرعب التى تلتمع فى عين طفل يقولون له أن يصافح (أونكل) .. إنه يجهل (أونكل) لهذا يخشاه كالموت ..

أشياء تحدث ليلاً ..

★ ★ ★

ثمة أشياء وأشياء ..

أشياء نلهو بها ، وأشياء تلهو بنا !

تلك الأخيرة تتباين فيما بينها .. لكنها جميعًا لها مذاق الملح ، وبرودة الثلج ، وقسوة الصخر ، ولا مبالاة العدم ..

أشياء تحدث ليلاً ..

★ ★ ★

خذ عندك على سبيل المثال هذا الحادث :

كنت أنا ساهرًا فى غرفة الطوارئ بوحدة (سافارى) ، أرشف القدح الثالث من القهوة ـ تلك القهوة عديمة اللون والرائحة والطعم والمفعول ـ مع طبيب ألمانى مذعور دائمًا اسمه (هانس) .. كنت أثرثر معه وأسأله عن السبب الذى يجعل كل الألمان اسمهم (هانس) .. ولم يفهم دعابتى لكنه قال فى كبرياء :

ـ « ليس كله (هانس) .. هناك (بيتر) و (أوتو) أيضًا .. »

هنا دوى صوت عربة الإسعاف اللعين المولول ، وهى تدنو لتقىء حملها الدامى فوقنا ثم تنصرف ..

اللعنة ! كانت الليلة هادئة وكل شىء يبشر بأن تظل كذلك .. لم يبق على الصباح سوى ساعتين .. حرام عليك أيها الجريح الذى لم يستطع أن يصبر قليلاً !

صوت النقالة البرتقالية إياها .. صوت الأحذية المطاطية للمسعفين الذين يركضون وقد انحنى ظهرهم ، وهم يجرون النقالة فوق الحصى الخشن لمدخل الوحدة ..

ثم ـ ها هو ذا ـ ترى الجسد الممدد على النقالة .. رجل هو أقرب إلى سنّ الشيوخ ، لا يكفّ عن الصراخ والعويل .. لكنه صراخ الغضب لا الألم ، وعويل الاحتجاج لا المعاناة ..

كان زنجيًا ذا بشرة داكنة أكثر من اللازم .. نوع السواد المائل إلى الزرقة الذى تراه فى أهل (كينيا) ، ولا تراه فى (الكاميرون) أبدًا .. إن سوادهم هنا فاتح نوعًا به لمسة من اللون البنى ..

كان شعره أشيب مجعدًا طويلاً إلى حدّ ، وجسده ضئيل قوى كجسد قط برّى .. وكان مقيدًا إلى النقالة !

كان هذا المشهد معتادًا فى (الكاميرون) على كل حال .. يندر أن أرى مريضًا لم يقيّد كالذبيحة إلى النقالة..

وبحثت عن (بودرجا) ـ جهاز الترجمة المعتمد ـ فلم أجده ، ووجدت واحدًا يتسلل من الباب ليلحق بالعجوز ، وقد بدت عليه علامات اللهفة والقلق .. إنه ابنه أو قريبه دون شك ..

كان الفتى حافى القدمين يرتدى (الشورت) ومن فوقه فانلة داخلية ممزقة متسخة ، وكان لا يكف عن التلويح وقول أشياء ..

سألت أحد الممرضين اللذين يجيدان الفرنسية :

ـ « ماذا هنالك ؟ »

أغمض عينيه فى ملل ، وقال وهو يدس لفافة تبغ بين شفتيه :

ـ « إنه مريض ! »

ـ « استنتاج لا بأس به .. لكن أريد أن أعرف ما يشعر به .. »

ثم تذكّرت فقلت له فى ضيق :

ـ « ممنوع التدخين فى المستشفى .. »

ابتسم بركن فمه ، وأشعل لفافة التبغ ، مما دلّنى على براعتى وقوة تأثير شخصيتى ، لكننى لم أكن فى ذهن رائق للمشاجرات على كل حال ، ثم إننى

لا أستطيع الشجار بالفرنسية .. لغة المرء الأم هى اللغة التى يستطيع التشاجر بها ، وما كان الأحمق ليفهم حرفًا من العربية ..

سألت زميله فى ضيق مماثل :

- « مِمَّ يشكو ؟ »

تناول لفافة تبغ من صاحبه وأشعلها فى بهجة ، ونفث الدخان فى وجهى ثم قال :

- « لا يشكو من شىء ! إنه مصرّ على أنهم حمقى ، وأن عليهم أن يطلقوا سراحه حالاً .. لكن هذا الـ ..... »

ودسّ طرف اللفافة المشتعل فى عين الفتى ليلفت نظرى إليه :

- « هذا الغلام .. يقول إن الرجل لا يكفّ عن العواء والصراخ والهذيان .. »

تأملت الرجل وبحذر مددت يدى أتحسّس نبضه (كان مقيدًا فى وضع المصلوب مما أتاح لى تحسس معصمه) .. ثم سألت السؤال المنطقى :

- « ولماذا لم يقل لهم ساحر القبيلة إن هذه (داوا) ، وإن الأرواح الشريرة احتلت جسد الرجل ، ويقوم بطردها بطريقته الخاصة ؟

إننى أندهش عندما تأتى للمستشفى حالة كهذه .. »

ابتسم الرجل وأخرج دفتر (السركى) لأوقع عليه .. وقعت باستلام المريض ، ثم طلبت الممرضين كى ينقلوا هذا العجوز إلى فراش مناسب .. وهو فراش نفحص عليه الحالات مبدئيًا ..

قال لى المسعف وهو يطوى النقالة مع زميله :

- « إن ساحر القبيلة لم يقل له هذا الكلام لسبب بسيط .. هذا العجوز هو نفسه ساحر القبيلة !! »

ثم أشار لزميله :

- « هيَّا بنا يا (جون) .. »

★ ★ ★

كان العجوز فى حالة هياج لا يمكن وصفها ..

وكان انطباعى عنه صحيحًا منذ البداية - وكل انطباعاتى صحيحة إلى درجة أن هذا صار مملاً - فى أنه يشبه القط البرى .. ضامر الجسد شرس كالشيطان ، به قوة تقهر ثلاثة رجال ..

وبالفعل وجدت نفسى مرغمًا على تقييده بالشاش إلى الفراش فى ذات الوضع السابق ، لكن رأسه ظلّ

حرًا يرتفع كرأس الأفعى مهددًا بالعض لكل من يدنو أكثر .. مع لسان لا يكف عن إطلاق السباب (البانتويد) الذى لم أفهم منه حرفا ، ولست نادما على ذلك .. إن آخر سبب يغريك بتعلم لغة أجنبية هو فهم الشتائم التى تطلق عليك ..

قال لى (هانس) وهو يملأ محقنًا بالـ (فاليوم) :

ـ « سأعطيه جرعة الآن .. هذا سيجعل الأمور أسهل .. »

هززت رأسى فى غباء :

ـ « لا بأس .. وآمل ألا تكون حماقة منا .. »

واخترقت الإبرة الأوردة البارزة لتفرغ سحرها فى دماء الرجل الفائرة ، فسرعان ما استحال المحيط نهرًا .. وبدأ الرجل يهدأ ..

هنا أمكننى أخيرًا أن أتأمله ..

★ ★ ★

لم يكن فى وجهه سوى عينين ..

كلا لم يكن وحشًا من قصص الخيال العلمى يبدو كعينين تمشيان على قدمين ، بل أعنى بذلك أنه كان يملك عينين قويتين حقًا ، ومن العسير دومًا أن تتذكر شكل فمه أو أنفه أو شاربه ..

ما سر قوة عينيه ؟! لا أدرى .. ولو استطعت تفسيرها لكان سهلا علىّ أن أفسر سر قوة الشخصية أو الحضور أو (الكاريزما) .. حقًا لا أملك تفسيرًا .. لكنى أكرر : كانت عيناه أقوى عينين رأيتهما فى حياتى ، بياضهما بلون العاج .. وسوادهما يشوبه بعض اللون الرمادى .. وكانت الشعيرات محتقنة فى ملتحمته مما جعلنى أتذكر عينى (دراكيولا) لحظة امتصاص الدماء فى أفلام (هامر) القديمة ..

طبعًا لن أقول هنا إن هاتين العينين كانتا ترقصان رقصة الجنون فى محجريهما .. فأران حبيسان لا يكفان عن محاولة الهرب، وفى هذه اللحظة خطر لى ـ وكنت محقًا ـ أن عينين كهاتين يجب إخفاؤهما بضمادة ..

فرغت من خواطرى ورحت أفعل ما يفعله أى طبيب مع أى مريض فى أى موقف مشابه .. الضغط .. الحرارة .. النبض .. عينة دم ..

هنا لفتت الممرضة الكاميرونية (كريستينا) انتباهى إلى سروال الرجل القماشى .. لقد فقد التحكم فى جهازيه البولى والهضمى معًا ..

أعدت تأمل وجه الرجل مبتعدًا عن مخالب العينين ..

عرق غزير .. لعابه يسيل من شدقيه .. هياج .. تبوّل لا إرادى ..

هذه علامات الحمى المخية .. هذا الرجل يعانى التهابًا فيروسيًا فى المخ ، وليشنقونى لو كان رأيى خاطئًا ..

لكن ما سببه ؟

استدرت لها وهمست فى أذنها :

ـ « أنا بحاجة لرأى د. (جابرييل) طبيب الأعصاب .. من العسير أن أطلب رأى (آرثر شلبى) الآن .. »

* * *

٢ـ لسنا على مايُرام ..

أشياء تحدث ليلاً ..

بعضها يجلب معه الصخب ، وبعضها يمرّ دون ضوضاء .. لكننا فيما بعد نعرف أنه كان أكثر بشاعة.. وأن الصمت قد يتهدّد وينذر ..

أشياء تحدث ليلاً ..

* * *

تعال مثلاً وأعطنى رأيًا فى كل هذا :

لقد جاء د. (جابرييل) الكاميرونى ، وتفحص حدقتى عين الرجل بكشّاف صغير ، ثم أجرى بعض اختبارات بالمطرقة على الجسد المقيد ..

سألته متلهفًا :

ـ « ما رأيك ؟ »

لم يردّ لأنه كان منهمكًا للغاية ، وقطرات العرق تنبت على جبينه الأسود وتنساب على زجاج عويناته فيجففها بمنديله ثم يقول لى :

- « أعتقد أنك محقٌ .. ثم لا أظن أنك لاحظت هذا .. »

ويشير بإصبعه الأسمر إلى أعلى فخذ الرجل ، وهنا استطعت أن أرى آثار الأنياب التى مزقت اللحم تمزيقًا .. إصابةٌ شديدةٌ لكنها قديمةٌ هى أقرب إلى الالتئام ..

سأل الرجل بلهجة (الباتنويد) عن شىء ما .. لكن الرجل أدار وجهه إلى الجانب الآخر وقال : اذهب إلى الجحيم .. كيف عرفت أنه قال ذلك ؟ ليس من العسير على بعض الإيماءات أن تكون بليغةً إلى حدّ أنك تسمعها بلغتك حتى لو كانت باليابانية ..

كان الأمر قد صار واضحًا ..

هذه حالةٌ متقدمةٌ من مرض الكلب .. لقد عضّ حيوان ما هذا الرجل منذ فترة قد تكون أسبوعًا أو أسبوعين أو ثلاثة ، وقد وصل الفيروس اللعين الشبيه بالرصاصة إلى المخ ، وبالتالى لم يعد هناك ما يمكن عمله سوى جعل لحظات المريض الأخيرة محتملةَ الألم .. فلم ينج أحد من هذا المرض فى

تاريخ الطب ، إذا ما بدأت أعراض الحمى المخية تبدو عليه ..

عضّ ؟ لا .. هذه خرافةٌ شائعة .. مريض الكلب لا يعضّ ولا يعوى كالكلاب ، لكنه يصاب بهياج شديد يجعله كوحش كاسر .. وهذا المريض يهاب تيارات الهواء ويهاب الماء - لأنه يخشى آلام ابتلاعه - مما ألصق بالمرض اسم (داء الخوف من المـء) أو (هايدروفوبيا) ..

سألت (جابرييل) وأنا أبتعد غريزيًا عن المريض :

- « هل ينكر أن حيوانًا ما عضّه ؟ »

- « نعم ينكر .. وهذا ديدن كل (الباتنو) على العموم .. كأنما العضّ إهانة .. لكن المرء يتعلم فى (إفريقيا) أن يلقى بكلمات المريض جانبًا ويعتمد على حدسه .. »

ثم هرش رأسه الأشعث وتساءل :

- « سآخذه عندى .. هل تعرف كيف تعالج حالة كهذه ؟ »

ـ « العلاج العرضى .. أمنع الألم والهياج والصداع وأمنعه من الإصابة بالتهاب رئوى .. »

ـ « تمامًا .. يمكنك أن تأتى لتراه غدًا لو كان حيًا .. »

وحيانى وحيًا (هانس) بهزتى رأس ثم انصرف ..

كان (هانس) متصلبًا يرمق الرجل الممدَد وقد بدا عليه الذهول حتى إننى اضطررت لمناداته مرتين ، ثم هززت ذراعه هزًا غير رفيق فتنبه واستدار لى ..

ـ « أ .. معذرة .. كنت شارد الذهن .. »

ـ « عيناه .. أليس كذلك ؟ »

نظر لى فى حيرة كأنما يقول : هل لاحظت الشىء ذاته ؟ ثم قال وهو يهزّ رأسه :

ـ « لست مستريحًا لهذا الرجل .. أرجو أن نتخلص منه سريعًا .. »

ـ « أشعر بالشىء ذاته .. »

ووقفنا نرمق الساحر الإفريقى ، الذى غزا فيروس السُعار خلايا مخه ، فكانت له الغلبة والكلمة الأخرة ..

★ ★ ★



كان (هانس) متصلبًا يرمق الرجل الممدّد وقد بدا عليه الذهول حتى إننى اضطررت لمناداته مرتين ..

عندما تنتهى نوبتجية السهر تشعر أنك ثمل تماما حتى لو لم تكن قد ذقت الخمر قط .. رأسك يهتز وحده كأنما هو معلق بياى مرن ، وقدماك رخوتان كعودى مكرونة ، والكلام يصدر منك قبل أن تعرف أنك ستقوله ، ثم تسمعه فتتساءل عن المتكلم قبل أن تعرف أنه أنت !

وقار المهنة نام مرهقًا ، حتى إننى وجدتنى أصافح الممرضة الكاميرونية بأسلوب (كفك) المصرى الشهير أكثر من مرة .. وصرت أضحك لأتفه وأقل سبب ..

الحق أننى كنت فى أمسّ الحاجة للنوم حتى الظهيرة ..

وفى غرفتى تمنيت لنفسى نومًا هادئًا ، وقمت بتشغيل جهاز طرد الأشباح المعلق بالسقف ، ثم احتضنت الوسادة وقررت أن أفكر فى أشياء مبهجة ..

مثل ماذا ؟ مثل .....

لقد نمت وأنا أفكر .....

★ ★ ★

لكن شيئًا بهيجًا واحدًا لم يزرنى فى النوم ..

كانت هناك عينان جاحظتان كاسحتان ، وسهل تمرح فيه الأسود لكنه كان يطل عليها من عل كالشمس .. وكنت أنا أركض عالمًا أنه يرانى .. ليس أمامى سوى اجتياز هذا السهل ..

ولكن الأسود .. إنها ستمزقنى حتمًا .. كيف أفرّ ؟ حسن .. لقد مررنا جوار ثلاثة منها لم تعرنى انتباهًا.. ولكن هل يستمر هذا ؟

أسد أشعث عملاق يستدير نحوى ويزأر .. قدماى ثقيلتان كعادة الحالمين .. أتصرف ببطء غبىّ ، وأقول وأنا أفرّ :

- « إنه التهاب فى المخ .. التهاب لا أكثر ! »

★ ★ ★

وأصحو من النوم لأدرك أننى كنت أئن بصوت عال.. أتأمل الضوء الخافت من وراء الستائر ، وأقول لنفسى : ما زال النهار طفلًا ..

دعنا نواصل النوم ..

لا تخافوا يا سادة .. إنه كابوس .. كابوس بسيط سيزول حالا ..

فلنفكر فى أشياء مبهجـ ......

★ ★ ★

العينان .. العينان ..

★ ★ ★

وأصحو لأجد الظلام الدامس يغمر الحجرة .. لا أستطيع أن أرى يدىّ ذاتها .. فيما عدا الأرقام على المنبه الذى أهدانى إياه خالى يومًا ما .. إنها السابعة .. السابعة ؟ مساء أم صباحًا ؟ »

ربّاه ! أنا دخلت الفراش فى الثامنة صباحًا .. ما معنى هذا ؟

وبصوت مسموع أخذت شهيقًا عميقًا لأتخلص من شعور الاختناق الذى غمرنى .. وأبعدت الظلام بيدىّ كى لا يجثم على روحى ..

ربّااااه ؟ لقد نمت إحدى عشرة ساعة كاملة !

ربّاه ! ساعدنى على استعادة دقة ساعتى البيولوجية ..

كان أول ما فكّرت فيه هو الحاجة إلى النور .. النور سيجعلنى أرتب أفكارى وأفهم من أنا وأين أنا ..

أضأت الأباجورة الشبيهة بقرص مضىء جوار الفراش ، ثم نهضت مترنحًا لأضىء الحجرة .. وأخيرًا بدأت أفهم وأتوازن ..

ربّاه ! إن علىّ الذهاب إلى قسم العظام حالا ، كى أعدّ الحالات التى ستجرى لها جراحة غدًا ..

غسلت رأسى ووجهى بالماء البارد ثم ارتديت ثيابى ومعطفى ، وغادرت الحجرة مسرعًا .. آه ! الظمأ يحرق أحشائى حقًّا ..

كان (بسام) التونسى خارجًا من غرفته ، فما إن رآنى حتى صاح بالفصحى كعادتنا فى التخاطب :

- « حمدًا لله على سلامتك .. لقد طال نومك .. فلم تستجب لقرعاتى على الباب ولا مرة .. »

مسحت وجهى بكفى ، وقلت :

- « كان عليك أن تصرّ أكثر .. إننى كالخارج من مفرمة لحم .. »

- « ما دمت نمت طويلاً فجسدك كان بحاجة لهذا .. إن الجسد أحكم من العقل أحيانًا .. »

حييته ، وهرعت راكضًا إلى قسم العظام ، حيث كان الطبيب الأسبانى (ميجيل كاسانى) يغلى غيظًا ، فما إن رآنى حتّى صاح :

- « هأنتذا أخيرًا .. إننى - حين أطلب شيئًا - لا أتوقع منك التنفيذ لكنى أتوقع الاعتذار لو لم تنو القيام به .. كنت قد بدأت العمل بدونك على كل حال .. »

نظرت لساعتى ، واعتذرت فى تهذيب .. لم أكن على ما يُرام قط ..

أعطانى قائمة بأسماء المرضى وممرضة هندية ، وقال إنه ينتظر الانتهاء من المهمة خلال ساعة .. ولن يقبل أعذارًا .

يا له من يوم ! يا له من يوم !

★ ★ ★

انتهيت فى التاسعة مساءً ، فاتجهت إلى الكافتريا لآكل شيئًا .. فلم يدخل معدتى طعام منذ يوم كامل ..

كان (بيير) طبيب العناية المركزة جالسًا هناك يلتهم شطيرة من اللحم مع كوب عصير ، فلما رآنى هزّ رأسه محييًا :

ـ « تبدو جائعًا كتمساح .. »

ـ « أنا لا أبدو .. أنا كذلك فعلاً .. »

ـ « وجبتك الأولى ؟ »

ـ « بالفعل .. »

ـ « وأنا كذلك .. »

لم أرد أن أصدع رأسى بالسؤال .. إنه يعمل فى العناية المركزة ولا بد أن يعيش فى توتر دائم لأن

هذه مهنته .. لو لم يعمل الطبيب بجدّ فى العناية المركزة فأين يعمل إذن ؟

قال لى دون أن ينتظر سؤالاً :

ـ « إن الأطباء مرضى متعبون حقًا .. »

ابتلعت ما فى فمى ، ثم سألته دون أن أهتم بالإجابة :

ـ « أطباء مرضى ؟ مرحى .. هل أصيب (آرثر شلبى) بنوبة قلبية أخيرًا ؟ »

بدت عليه إمارات الدهشة ، وغمغم :

ـ « آخر من يعلم ! »

ـ « يعلم ماذا ؟ »

ـ « أين كنت بالضبط ؟ نائمًا مع أهل الكهف ؟ »

قلت فى ضيق وقد بدأ يثير أعصابى :

ـ « نعم كنت نائمًا معهم ، وما زال اختلاف العملات يثير حيرتى .. اسمع .. يمكننى أن أسخر منك لأنك لا تعرف ما حدث أمس فى (إندونيسيا) .. إن السخرية والشعور بالتفوق هينان دومًا ..

قال فى شىء من اعتذار :

- « كل (سافارى) تتحدث عما أصاب (جابربيل) و (هانس) ! »

توقفت عن المضغ ، وتصلبت عضلات بلعومى :

- « ماذا دهاهما ؟ »

- « إنهما فى غيبوبة منذ العاشرة صباحًا ! »

★ ★ ★

٣- فى المشرحة ..

أشياء تحدث ليلًا ..

قد يكون لها مذاق الحلم ورائحة الحلم وملمسه .. لكن ما يثير هلعنا هو أن نعرف الحقيقة : للأسف ليس هذا حلمًا ..

أشياء تحدث ليلًا ..

★ ★ ★

تظنني أهذى ؟ إذن خذ هذا المثال :

- « لقد انتابنى الهلع .. وتلاشى أى أثر للإرهاق من جسدى .. إن الإرهاق ترف يحتاج إلى بال رائق وإلى استرخاء .. لكن (الأدرينالين) الذى تدفق فى دمى جعلنى متحفزًا كأفعى ..

- « غيبوبة ؟! »

- « نعم .. هياج غير مفهوم ثم غيبوبة .. »

- « هل يمكن أن أراهما ؟ »

- « لا داعى الآن .. لن تحب المنظر كثيرًا ، ثم إنهما لن يعرفاك على كل حال .. »

عدت أسأله وأنا أحاول جمع شتات خواطرى :

ـ « ما هو سبب هذه الـ ... الغيبوبة ؟ »

هزّ كتفيه فى تواضع ، وغمغم :

ـ « حتى الآن لا شىء .. السكر بالدم على ما يُرام.. وظائف الكلى جيدة .. السائل النخاعى الشوكى رائق .. الأشعة المقطعية للمخ جيدة .. لا توجد سموم من أى نوع فى دمهما .. باختصار : لغز كأكثر حالات الغيبوبة فى الواقع .. »

سألته وأنا أتأهب للنهوض :

ـ « هل التهاب المخ الفيروسى ينتقل فى مدى أربع ساعات ، ويحدث تأثيرًا ؟ »

مطّ شفته السفلى وقال :

ـ « لا أظن .. نادرة هى الأمراض التى تكون فترة حضانتها بضع ساعات .. وعلى كل حال خير من يفتيك فى هذا هو (آرثر شلبى) .. »

ـ « سأحاول معرفة رأيه .. »

★ ★ ★

الآن يجب أن أرى الساحر المسعور إياه ..

إن القصة غامضة لكنى متأكد من شىء واحد .. لقد رأى ثلاثة منا هذا الساحر ، غاب اثنان منهما فى غيبوبة ، والثالث نام كالقتلى يومًا كاملا بلا تفسير ..

وهكذا اتجهت إلى قسم الأمراض المعدية ، وهو جزء من (سافارى) يتوجس الجميع عند المرور أمامه .. كان مبنيًا وحده داخل نطاق الوحدة ، لكنه بعيد عن مبانيها الرئيسية ، وله إجراءات معقدة فى الصرف الصحى والتموين وما إلى ذلك .. بالإضافة إلى إرغامك على ارتداء القفازات والقناع الواقى وأكياس بلاستيكية تضعها فوق حذائك ..

كان د. (جابرييل) قد نقل الحالة إلى هناك .. فهو غير قادر على السيطرة عليها فى قسم الأمراض العصبية ..

وسألت الممرضة الآسيوية التى وجدتها هناك عن مريض الكلب الذى وصل أمس ، فأشارت إلى غرفة مغلقة وقالت شيئًا ما بالصينية / باليابانية / بالفيتنامية .. لا أدرى بالضبط ..

اتجهت إلى الباب وفتحته .. وكان ما رأيته هو ـ ببساطة ـ فراش دون أغطية وقد قلبت حشيته

المطاطية .. وإلى جوار الفراش كان هناك دلو تفوح منه رائحة مطهر ما ..

إنها قصة بليغة جدًا كما ترى ..

استدرت لأسألها بالفرنسية فى غيظ :

ـ « لمَ لا تقولين إنه مات وينتهى الأمر ؟ »

ـ « ظننتك فهمت .. »

ـ « متى ؟ »

ـ « فى الثانية بعد الظهر .. تـ .. تـ .. تـ .. تـ ...... »

واحتقنت أوردتها وكادت شرايين مخها تنفجر ، فعطفت عليها :

ـ « تريدين أن تقولى (تشنج) ؟ »

ـ « نعم .. نعم .. »

واستردت أنفاسها ، وبدت عليها الراحة ..

غادرت المكان ، وقد أزمعت أن أتجه إلى المشرحة لأعرف رأى د. (جيديون) فى هذا كله .

وكان عاكفًا على إعداد بعض الشرائح للفحص مع مساعده الكورى الذى نسيت اسمه ، وشممت

رائحة (الفورمالين) اللعينة التى تحرق العين حتى تدميها .. لشدَ ما ارتبطت هذه برائحة الموت فى ذهنى ..

ـ « مساء الخير يا بروفسور .. »

ـ « مساء .. »

ورفع وجهه الصلب نحوى منتظرًا ما سأقول .. ابتلعت ريقى وسألته فى كياسة عن جثة الساحر الإفريقى الذى مات بداء (الكلب) ..

قال وهو يشير بيده إلى الثلاجة :

ـ « هو هناك .. لم أقم بتشريحه بعد .. وأعتقد أن هذا سيفتح علينا باب جهنم لأن الرجل مقدس عندهم ..»

ـ « هل لى أن أراه ؟ »

ـ « سأموت كمدًا لو لم تفعل .. »

واتجهت إلى الثلاجة الأفقية الشبيهة بكومود ذى أدراج عديدة .. كنت أخفى لعبى فى طفولتى فى شىء كهذا .. المشهد ذاته يتكرر لكن محتوى الأدراج يختلف .. إن الألعاب هاهنا من نوع آخر .

جذبت المقبض البارد للوراء ، وبدا لى الشىء

الملفوف فى ملاءة بالداخل .. لم نكن نستعمل الأكياس البلاستيكية فى (سافارى) لحسن الحظ لأن هذا يجعل الأمر بشعًا ..

أزحت ـ بحذر ـ الملاءة عن الوجه .

هو الوجه ذاته وقد اختارت شفتاه لون الموت الرمادى الجهيم ..

لكن العينين ! العينين مفتوحتان تحدقان فى وجهى بإصرار مريع ..

للوراء تراجعت خائفًا حتى كدت أتعثر ، وهتفت :

ـ « د. (جيديون) ! إنه ينظر لى شذرًا ! »

لم يرفع وجهه عما يؤديه ، وقال ببرود :

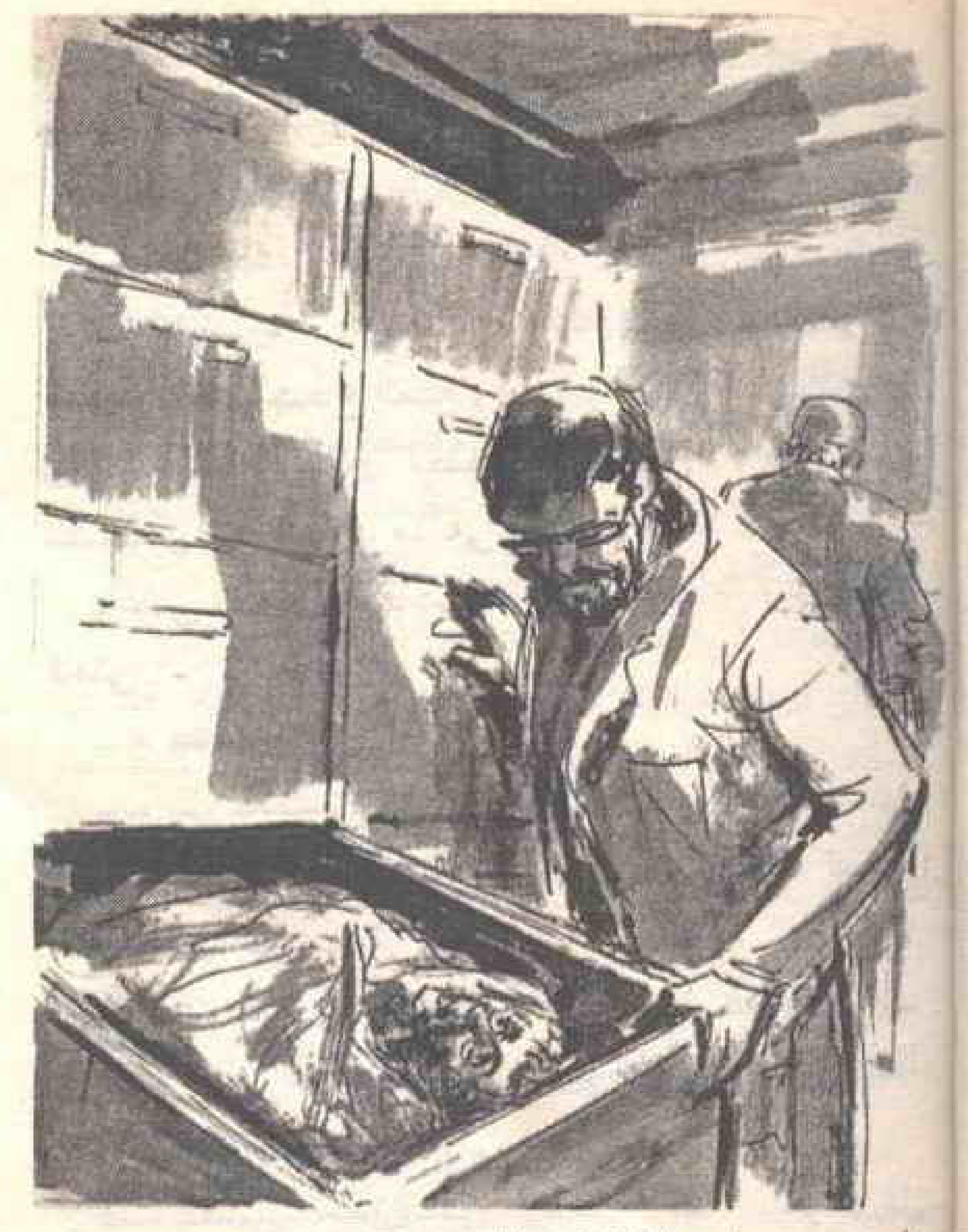
ـ « إنه ميت يا بنى ، ومن العسير أن يرمقك شذرًا .. هذا رأيى ! »

ـ « لكن عينيه مفتوحتان .. »

فى صبر قال :

ـ « إن هذا يحدث .. لقد حاولت كثيرًا غلقهما لكن هذا مستحيل .. لا بد أنه نوع من التصلب الرمى فى عضلات الجفن .. »

ثم نظر فى ساعته ، وقال :



أزحت ـ بحذر ـ الملاءة عن الوجه .

هو الوجه ذاته وقد اختارت شفتاه لون الموت الرمادى الجهيم ..

- « سأقوم بتشريحه بعد ربع ساعة .. هل تريد حضور ذلك ؟ »

قلت فى لهفة :

- « بالتأكيد .. لكن ماذا تتوقع أن تراه ؟ »

- « لا شىء .. علامات التهاب المخ ، والتغيرات المعهودة فى جذع المخ وقرن (آمون) .. ولربما وجدنا علامة التأثير الخلوى للفيروس .. هذا كاف لتشخيص المرض .. ما هى العلامة هنا ؟ »

باغتنى السؤال المفاجئ فتوترت ، وقلت وأنا أشد قامتى :

- « جسيم (تور) ؟ »

- « بل جسيم (نيجرى) يا فتى .. إن جسيم (تور) خاص بالحمى الصفراء .. يبدو .. أنك نسيت علم الفيروسات .. »

احمرت أذناى - أو هكذا أدركت من حرارتهما - ووقفت أنتظر انتهاءهما من إعداد الشرائح حتى يبدأ عملية التشريح ..

قلت لنفسى : غدًا سأكون رائعًا .. غدًا سأعرف كل شىء عن جسيم (نجرى) و(تور) وعن كل شىء ..

سأقرأ كل شىء وأتذكر كل شىء .. المشكلة أن هذا الغد لا يجىء أبدًا .. لا أعرف متى لكنى مطمئن إلى قدومه ، وفى كل ليلة أدخل غرفتى منهكًا لأقرأ بضعة أسطر من ذات الصفحة من كتاب (إيسلباتشر) - وغالبًا ما تكون الأسطر ذاتها - ثم أنام .. وغدًا يوم آخر يتكرر فيه كل شىء ..

إننى أتعلم قدرًا هائلاً - ذلك المعلومات فى (سافارى) لكن بشكل شفوى ، أما القراءة — ذلك الفن البشرى العتيق - فشىء لم تعد لى به علاقة تقريبًا ..

ونظرت فى غل إلى (جيديون) ..

متى وجد الوقت الكافى والمزاج الرائق ليعرف كل ما أعرفه ؟ لهذا صار هؤلاء علماء .. لأنهم استطاعوا إرغام أنفسهم على استكمال قراءة الصفحة العاشرة من كتاب (إيسلباتشر) حين عادوا لغرفهم ليلاً ..

لكنى لم أفشل بعد ..

يمكننى أن أكون مثله وأفضل ..

سيكون لى شأن عظيم.. ولكن غدًا .. ليس اليوم!

وأفقت من خواطرى على صوت فتح الثلاجة ..

تمديد الجسد الزنجى النحيل على منضدة التشريح الرخامية المثقوبة من وسطها ..

للمرة الأولى أشعر بأننى أحب عملية التشريح ..
إنها ستجعلنى أعرف ، ثم إنها ستخلصنى من هذا
الكيان المقيت ..

رفع (جيديون) عويناته لأعلى كى يأخذ نظرة
أشمل .. ثم قال :

ـ « استعد بالمسجل يا (كيم) .. »

ودس يديه فى القفازين ، وهو يواصل تأمل الجثة :

ـ « غريب حقًا أمر هاتين العينين .. »

وواصل التأمل برهة كأنما هو شارد الذهن ، ثم قال
وهو يشهق :

ـ « هل أنتما مستعدان ؟.. فلنبدأ .. »

* * *

هل أنا أحلم أم أن هذا الإصبع قد اختلج قليلاً ؟

يسمون هذا (هلوسة المشهد الميت) ، وهو
يحدث كثيرًا لمن يطيلون النظر فى جثة .. عندئذ
يرونها تتحرك ..

كان أبى فى فراش الموت ، ولم يغطوا وجهه بعد
حتى تهدأ أمى بعض الشىء ، ودخلت الحجرة وحدى..
راعنى اللون الأصفر كالليمون على وجهه المجعد

المتراخى .. ثم .. ثم أطلت النظر .. رأيت ركن فمه
الأيسر يتحرك .. إنه حىّ !

لم يملأنى هذا حبورًا ـ صدقونى ـ بل ملأنى رعبًا..
ثم .. عرفت أننى كنت واهمًا .. ولم يعد أبى للحياة
قط بعد هذا ..

إن (هلوسة المشهد الميت) تتكرر معى الآن بوضوح .

* * *

قال (جيديون) وهو يضع نصل المبضع على
الجبين العارى :

ـ « استعد بالمنشار يا (كيم) .. سنبدأ بالمخ حالا
ثم ...... »

سألته وأنا أتراجع بحثًا عن مكان لرؤية أفضل :

ـ « هل هو معد يا بروفسور ؟ »

ـ « مع داء الكلب يا فتى لا يمكنك أن تضمن شيئا ..
كلعابه فوق جرح فى يدك .. لقد انتقلت حالات كثيرة
بسبب زرع قرنية مريض مات بمرض عصبى مجهول
لمريض آخر .. عندها كنا نعرف ـ متأخرًا جدًا ـ أن
المريض الأول كان مصابًا بالكلب .. وهذه هى

القاعدة : لا تنزع أى عضو أخذته من ميت توفى بداء مجهول .. »

ثم غمغم وهو يتأمل الوجه :

ـ « الحق أن شيئًا ما غريب فى هذا الـ ...... »

كان هذا آخر ما قال ..

قبل أن يهوى أرضًا .

★ ★ ★

٤ ـ شرحوه ثانية !

أشياء تحدث ليلاً ..

هناك أشياء وأشياء .. لكن ما يحدث ليلاً له ـ دائمًا ـ مذاق خاصّ حيث الظلام أو الضوء الصناعى .. ونحن اعتدنا أن الحقيقة لا تُرى إلا فى نور الشمس .. لها ضياء الشمس ذاته ..

أشياء تحدث ليلاً ..

★ ★ ★

خذ عندك ـ كى تصدقنى ـ المشهد التالى :

المدير ـ البروفسور (بارتلييه) ـ وقد استدعوه من داره ، يقف ليرمق ما يحدث مذهولاً غير مصدِّق .. إنها الساعات الأولى من صباح اليوم التالى ، وما كان ليحسب حين دقّ جرس الهاتف أنهم يريدونه لأمر كهذا .. حائرًا شاردًا يجذب شعيرات لحيته ويتحرّك لُغْده البدين كأنه فى عنق سحلية (إجوانا)..

كانوا قد أعادوا الجثة إلى الثلاجة ، وحملوا

(جيديون) إلى العناية المركزة .. لقد حاولنا كل شىء كى نعيده إلى الوعى .. إنها لم تكن إغماءة عادية بل غيبوبة كاملة ..

فحصه مختصّ الأمراض العصبية .. وطلب عمل أشعة مقطعيّة على مخه برغم أنه استبعد أن نجد شيئًا .. وحقًا لم يكن هناك شىء ، وجاءت أبحاث المعمل لتقول إن الرجل سليم كلوح زجاج ..

صاح (بارتلييه) محنقًا :

ـ « إذن ما الخطأ هناك ؟ إن كل هؤلاء غير أكفاء حقًا .. »

كان خبيرًا بالفيروسات ، يؤمن بكل ما هو دقيق وواضح ..

وكان ـ كأكثر الأطباء الأكاديميين ـ يضايقه كل هذا الغموض والتباس الحقائق فى الطب السريرى الذى يمارسه الأطباء العاديون بالسماعة والمطرقة ..

لكن الأطباء الذين يتعاملون مع المرضى يتعلمون هذا سريعًا .. لا يوجد شىء مؤكد أو مكرّر أو مألوف فى هذه المهنة .. كل مرض هو مشكلة فى حد ذاتها ، وحمى التيفود لو أصابت عشرة مرضى لاتخذت عشر

صور مختلفة .. فمريض يسعل ، ومريض فى غيبوبة ، ومريض يتبرز دمًا ، ومريض يشكو من ألم بسيط فى أمعائه .. إلخ ..

لكن (بارتلييه) لن يفهم هذا أبدًا .. ثلاثة من أطباء (سافارى) دخلوا فى غيبوبة خلال ثلاثين ساعة .. ثم تقولون إنه لا يوجد تفسير ؟

ما نفع الطب إذن ؟ ما جدوى كل الملايين التى تنفق على هذه الوحدة ؟ بل ما نفعكم أصلاً ؟

★ ★ ★

قلت له وهو واقف يتأمل (جيديون) :

ـ « سيدى .. أنا لا أعرف حقيقة ما يحدث .. لكن ثمة ما يربط بين حالات الغيبوبة هذه .. وقد كدت ألحق بهم بدورى لولا شىء لا أدرى كنهه جعل غيبوبتى لا تزيد على سبات عميق .. »

بدا عليه الاهتمام وأطرق واضعًا يده على كتفى :

ـ « استمر يا ابنى .. »

وله حكيت عن الساحر ، وعن وفاته بداء الكلب وعن التشريح ..

أصغى لى باهتمام ، ومعه د. (باركر) مساعده .. وحين فرغت هتف د. (باركر) وقد نفد صبره :

ـ « داء الكلب لا ينتقل بهذه السرعة ، وبمجرد فحص المريض أو رؤيته من بعيد .. إن ما تتحدث عنه لسحر أسود يا بنى .. »

ضمّ (بارتلييه) أطراف أنامله بمعنى (تمهل) .. وقال :

ـ « لحظة يا (باركر) .. إن (علاء) لا يقدم استنتاجات بل يقدم مشاهدات .. والبحث العلمى يبدأ بالمشاهدة ثم الفرضية ثم التجريب ثم الاستنتاج .. إن الفتى قد لاحظ ظاهرة تثير ريبته .. فهل لها مغزى ما ؟ »

قلت فى إصرار :

ـ « (جابرييل) و(هانس) فحصا المريض .. (جيديون) شرع فى تشريحه .. هل هذه مصادفة ؟ »

عقد (باركر) ذراعيه على صدره ، وقال :

ـ « إن كان هكذا فبم تنصح ؟ أنبحث عن طارد أرواح كى يطهر لنا هذا المستشفى ؟ »

ثم أردف وقد تذكر شيئًا آخر :

ـ « أم لعلك تطالب بحرق جثة هذا الساحر ؟ »

كنت بطبعى أمقت (باركر) وأحب استفزازه ؛ فهو من الطراز نافد الصبر الذى لا يطيق الشباب .. إنه لا يؤمن بتدرج عملية التعلم .. وهذا سخف حقيقى يمكن فهمه لو قارنت بين طالب السنة الأولى فى الكلية وطالب السنة النهائية .. ليس طالب السنة الأولى أغبى أو أكثر حمقًا .. هو ـ فقط ـ فى الدرجة الأولى من سلم التعلم ولن يلبث أن يرتقى بعلمه .. لكن (باركر) كان يرى طالب السنة الأولى ـ على غرارى ـ بطيئاً جدًا ، غبيًا جدًا ، سخيفًا إلى حد لا يطاق .. وكأنما ـ (باركر) ـ ولد عالمًا ..

قلت ببرود :

ـ « ليس هذا حلاً محببًا لكنى قد أقترحه .. »

هنا قاطعنا (بارتلييه) وقد أحس أننا على وشك الشجار .. »

ـ « سأقوم بترتيب عملية تشريح ثانية .. ولن نترك مجالاً للخطأ .. »

ـ « ومن الأحمق الذى سيقوم بها ؟ »

ـ « يا له من سؤال ! أنت طبعا يا د. (باركر) !»

احمرّ وجه الرجل للمفاجأة والإهانة معًا ..

لقد نسينا حقًا أنه أستاذ فى علم الأمراض (الباثولوجى) ..

لكنه خشى ـ كالعادة ـ أن يبدو جبانًا ، فهز رأسه فى حماس صناعى وقال :

ـ « ليكن .. لكنى أريد هذا الـ (عبد العظيم) معى .. لقد حان الوقت كى يتعلم شيئًا حقيقيًا .. »

قلت له وأنا أتحاشى نظراته :

ـ « ليكن .. لقد حاولت مرارًا حضور هذه العملية لكنهم جميعًا يدخلون فى غيبوبة ، وعسى أن تكون أحسن حظًا .. »

ـ « جميل .. إذن هيا بنا إلى المشرحة .. »

★ ★ ★

استعددنا لكل شىء ، ووضعنا الكمامات الواقية ، وارتدى كل منا قفازين فوق بعضهما .. من أدرانا أن الأمر لا يتعلق بفيروس جديد عاتٍ على غرار فيروس (لاسا) الذى كان يقتل كل من يتعامل مع المرضى به ، وغدا انتقاله محيرًا للعلماء حتى أنهم قرروا وقف الأبحاث عن الداء ؟

قام المساعد الكورى بتشغيل جهاز الكاسيت ، الذى كان يحمل آخر ما قاله (جيديون) قبل أن يسقط أرضًا ..

وبالوقار المناسب لنائب مدير تذكر أنه أستاذ علم أمراض ، تنحنح (باركر) وقال للكورى :

ـ « هات الجثة يا (كيم) .. »

اتجه (كيم) إلى الثلاجة وعالج الدرج العملاق إياه حتى فتحه ، وألقى نظرة إلى الداخل ، ثم صاح مذعورًا بشىء كورى ما ..

إن الأمر لا يحتاج إلى ذكاء كثير ولا جهد للترجمة ......

الإنسان لا يصرخ حين يخرج جثة من الثلاجة إلا لو كانت قد تعفنت دون سبب ، أو دبت فيها الحياة فجأة ..

أو .. لو لم تكن هناك .....

★ ★ ★

والجثة لم تكن هناك !

من ارتباكه راح (كيم) ينزع الملاءة ويتفحصها ، ثم يتفقد الأرض كأنما ما ضاع منه قطعة عملة وليس رجلًا بالغًا ميتًا ..



اتجه (كيم) إلى الثلاجة وعالج الدرج العملاق إياه حتى فتحه ، وألقى نظرة إلى الداخل ، ثم صاح مذعوراً بشيء كورى ما ..

فى حزم شخط (باركر) من وراء لثامه :

ـ « ما هذا التهريج ؟ هل تمزحون ؟ »

بصوت كالبكاء هتف (كيم) :

ـ « أقسم يا د. (باركر) .. لقد.. أعدته بنفسى .. لقد ...... »

ـ « ربما تبخر أو أكلته قطة .. لقد صار التسيب فى هذه الوحدة ...... »

قلت وأنا أنزل اللثام عن فمى :

ـ « ليس له ذنب يا د. (باركر) .. الأمر كله خارج عن نطاق الفهم ، وأراهن على أن هذا الساحر لم يمت حقًا .. »

ـ « إنه يجيد إدعاء الموت إلى حدّ غير مسبوق .. »

ـ « الأمر وارد يا سيدى .. لقد دفن مرضى كثيرون أحياء بسبب داء التصلب ، وهى الفكرة التى أثارت رعب (إدجار آلان بو) فى أقصر قصصه .. أعتقد أن هذا المدعى يجوّل حرًا فى المستشفى الآن .. »

نظر لى من وراء اللثام .. قطرات عرق تحتشد على جبينه ..

لو كان فرضى صحيحًا ، فهناك فى (سافارى) يجول ميت لم يمت ، وهو ـ بالمناسبة ـ مصاب بالسعار !

★ ★ ★

٥ ـ أين هو ؟

وفى السابعة مساء استدعونى كى أقابل ـ كالعادة ـ بروفسور (بارتلييه) ؛ فما إن توجهت إلى هناك مزمجرًا عصبى المزاج ؛ وقد استطالت لحيتى أكثر وأشعل أخلاقى جوعى الشديد إلى الطعام والنوم ؛ حتى رأيت السكرتيرة شاحبة الوجه .. وفى عينيها نظرة مشجعة مناشدة ..

قالت لى همسًا :

ـ « د. (عبد العظيم) .. حاول أن تتمالك أعصابك ، وأرجوك .. أرجوك .. لا تردّ عليه أبدًا .. »

ذكرتنى بأختى الكبرى ، فلو كانت تجيد العربية لقالت كلامًا على غرار : اسمع من هنا وأخرج الكلام من هنا .. أو : كبّرْ دماغك ..

نظرت لها فى حيرة ، ثم دخلت الغرفة ..

فما إن رآنى (بارتلييه) حتى انفجر كالبركان .. أشعر بانبهار شديد حين أرى كيف ينجح الفرنسيون

فى استعمال لغة أنثوية مرهفة مثل الفرنسية فى السباب وغليظ القول ..

- « هأنتذا أيها الـ ! يا لك من غبى أحمق ! كل العاملين هنا لا يصلحون حتى لتنظيف المراحيض .. إننى ..... »

قلت له رافعًا سبابتى منذرًا :

- « بروفسور .. ثمة قاعدة نقولها فى (مصر) دائمًا : إذا ارتفعت الأيدى تساوت الرءوس .. ومعناها أن كونك رئيسى لا يسمح لك بإهانتى وإلا فمن حقى استعمال اللغة ذاتها ! »

نظر لى لثانيتين باحثًا عن إجابة .. إن سرعة بديهيته تخذله دومًا أمام الردود الجاهزة من هذا النوع .. والواقع أننى أحفظ ثلاثة أو أربعة ردود مسكتة أجابهه بها فى كل مرة ، ودائمًا ما ينسى أننى استعملتها من قبل ..

قال أخيرًا فى شىء من تخاذل :

- « إن من يعجز عن تشخيص الموت لا يستحق لقب طبيب .. »

رفعت رأسى فى شمم :

- « ومن عجز عن تشخيص الموت هنا ؟ لم أكن أنا من أرسل ذلك الساحر إلى المشرحة .. لقد كنت فى شبه غيبوبة فى غرفتى .. »

بدت عليه الحيرة أكثر .. وأدرك أنه فجر قنبلته فى الهدف الخطأ .. قال وهو يدعونى بيده للجلوس :

- « إذن من الأحمق الذى ...... ؟ »

- « لا بد أنه (جيرى ثورنتون) الأمريكى .. هو المسئول عن الـ ...... »

هنا كان إصبعه قد امتدَ إلى زر (الدكتافون) ليزأر :

- « أريد (جيرى ثورنتون) حالاً ! »

وجاء (ثورنتون) بعد قليل .. رجل ملتح ذو شعر ذهبى . ولحيته من الطراز الذى تشك أحيانًا فى وجوده فهى بلون البشرة تقريبًا .. كان عصبى المزاج قصير الفتيل ، وأدركت أن مشاجرة عنيفة ستنشب هاهنا ..

كان (ثورنتون) واضحًا جدًا .. فى الساعة الثانية ظهرًا تشنج الساحر بعنف ، وراح يرغى ويزبد وقد استحالت شفتاه إلى اللون الأزرق ..

بالطبع حقنوه بالـ (فاليوم) وثبتوا قناع الأوكسجين على فمه ، ثم وجد (ثورنتون) أن النوبة أعنف مما يجب مما اضطره إلى تخدير المريض تمامًا وإيلاج أنبوب فى القصبة الهوائية ، ثم ثبته إلى المرقاب (المونيتور) وراح ينتظر ..

ـ « لم تكن ثمة أخطاء .. لقد صار رسم القلب مسطحًا .. توقف التنفس تمامًا .. اتسعت حدقتا العينين .. لم يعد هناك ضغط دم .. لو كان حيًا بعد كل هذا فإننى بالتأكيد قارفت ذنبًا عظيمًا حين دفنت أبى بعد موته .. »

عقد (بارتلييه) كفيه تحت ذقنه كأنما ليصغى باهتمام أكبر ، وقال :

ـ « لكن جثتك هذه تركت الثلاجة ورحلت .. »

ـ « إن الجثث أشياء كأى أشياء أخرى .. يمكن نقلها أو سرقتها .. »

هنا احمرّ وجه المدير كعرف ديك ، وضرب المكتب بقبضته :

ـ « المشكلة هى أنه لا يوجد ما يغرى بسرقة جثة ساحر إفريقى عجوز .. فما هو التفسير ؟ »

وبيد قانطة أشار لـ (ثورنتون) بالانصراف . فقد انتهى ما لديه ولم يجد ما يصبّ عليه بركان غضبه سوى .. سوى السكرتيرة طبعًا ..

وغادرت المكتب وأنا أسمع زنيره يلومها على أى شىء .. على فتحها للباب أو عدم فتحها له .. على إضاعة الأوراق المهمة أو على الاحتفاظ بالأوراق غير المهمة ..

★ ★ ★

وعند منتصف الليل أفاق (جابرييل) من الغيبوبة ..

★ ★ ★

لم أعرف بهذا الخبر إلا عندما صحوت صباحًا ، وفى الكافتريا قابلت (بيير) يلتهم على عجل شطيرة من الزبد والمربى على الواقف ..

قال حين رآنى :

ـ « لقد انتهى الكابوس .. (جابرييل) فتح عينيه وتكلّم .. »

ـ « حقًا ؟ متى ؟ »

ـ « عند منتصف الليل .. »

ـ « بأية معجزة ؟ »

ـ « لا معجزات .. أو ـ على الأقل ـ لا معجزات بشرية .. لقد كان نائمًا كالمومياء ثم صحا فجأة .. نزع أنبوب القصبة الهوائية وإبر المحاليل ، ونهض فى الفراش .. وقال : أنا أشعر بتحسن .. ثم طلب بعض الماء .. الكثير منه .. ولم يوجه أسئلة من نوع : أين أنا ؟ »

ـ « جميل .. وماذا يفعل الآن ؟ »

ـ « إنه تحت الملاحظة .. ما زال تفاعل حدقتيه للضوء لا يريحنى كثيرًا .. ثم إنه يتصرف كالمصابين بالارتجاج .. »

صببت لنفسى بعض القهوة ، وسألته :

ـ « وهل يعرف ما حدث له ؟ »

ـ « البتة .. لكنه لا يسأل .. »

ثم سألنى وهو يعرف الإجابة :

ـ « هل تريد أن تراه ؟! »

★ ★ ★

نعم أريد .. وهو سؤال ينم عن جهل بطبائع البشر ..

فى ضوء النهار بدا لى (جابرييل) شاحبًا .. يجب أن تقضى وقتًا طويلًا مع السود كى تعرف كيف يشحبون ..

جالسًا فى الفراش يقلب الملعقة فى فنجان الشاى ، شارد الذهن كأنما هو فى بلاد سحيقة وكأنه سيظل يحرك الملعقة للأبد ..

جلست على المقعد بجواره فلم يبد أنه تعرفنى .. لكنه بعد هنيهة همس :

ـ « مرحبًا يا (علاء) .. »

ضربته فى كتفه مداعبًا كعادة الأجانب التى لن أفهمها أبدًا :

ـ « هأنتذا عدت من الغيبوبة أيها العجوز .. »

لم يضحك .. لم يعلق .. فقط واصل التحديق فى الفنجان ، وغمغم :

ـ « أحيانًا أحسبنى لم أفعل ! »

قربت رأسى من رأسه ، وبحرص سألته :

ـ « لا تذكر حرفًا مما سبق الغيبوبة ؟ »

امتصَّ رشفة من القدح أحدثت صريرًا ، ثم غمغم من جديد :

ـ « لا شىء .. أنت تعرف أن هذا يحدث دائمًا .. تكون منهمكًا فى العمل تمارس نشاطك ثم .. ثم تصحو فى الفراش لتعرف أنك كنت فى غيبوبة .. ثانية واحدة يخبرونك بعدها أنها كانت ثلاثة أو أربعة أيام .. »

- « ولا تذكر حرفًا عما حدث فى أثناء الغيبوبة ؟»
لعق شفته السفلى ، وراح يحاول التذكر :

- « لا أدرى .. ربما هو كابوس .. كانت هناك صـ ... صحراء أو سهـ ... »

أكملت كلمته :

- « سهل .. وكانت تمرح فيه الـ ...... »

هزّ رأسه مصدقًا :

- « الأسود .. وكانت عينان قويتان لا تفارقان وجهى .. بل عالمى كله .. وكان علىّ أن أجتاز السهل .. وبعدها ...... »

ثم حملق فى وجهى واتسعت عيناه أكثر :

- « ولكن .. كيف عرفت ؟ هل كنت أتكلم فى ...... ؟ »

- « بل الأمر أسوأ .. لقد رأيت أنا الحلم ذاته ! »

وجلسنا نتبادل النظرات لفترة لا يعلم سوى اللّه (سبحانه وتعالى) طولها ..

★ ★ ★

وكان التفتيش جاريًا على قدم وساق فى (سافارى) ..

فريق من العمال يحمل الكشافات ، ويقتحم الغرف ويزحف إلى ما تحت درجات السلم الرطيبة المظلمة ، ويبحث فى خزانات الحائط وفى محارق القمامة وتحت الأسرة ..

المطلوب : جثة ساحر إفريقى عجوز .. من يجدها يخبرنا يا أولاد الحلال وله مكافأة لا بأس بها أبدًا ..

كيف ولماذا تختفى الجثث بهذه البساطة ؟ من المؤكد أن أحدًا لم يمزقها أو يحرقها أو يذيبها فى الحمض .. فأين ذهبت ؟

★ ★ ★

(موجازا) كهربائى الوحدة يهبط إلى القبو ..

لماذا يهبط إلى القبو ؟ يا له من سؤال ! طبعًا ليختلس لفافة تبغ كان فى أشد الشوق لها ، وهو يعلم أن د. (باركر) لا يقبل الأعذار ولا يمزح مع من يخالفون أوامر عدم التدخين فى (سافارى) .. وكان الأطباء المدخنون يتظاهرون بأنهم مصابون بالإسهال، بينما العمال المدخنون يتظاهرون بأن القبو فى حاجة إلى تنظيف ..

أشعل عود ثقاب ولامس طرف اللفافة به فتوهج..
تصاعد الدخان وأوشك أن يهز العود ليطفئه .. لكنه توقف ..
كان القبو ككل قبو آخر .. مظلمًا به فأر أو فأران لا يستأهلان استئجار شركة تطهير للخلاص منهما ، وكانت به مواسير مياه صدئة وعدد هائل من لوحات توزيع الكهرباء والقوابس ...... و ......
وصندوق خشبى ضخم !
لم يكن (موجازا) من المولعين بفتح الصناديق الخشبية الضخمة ، لكنه فى هذه المرة شعر بفضول أقوى من أن يُدفن ..
صندوق خشبى يبدو كالتابوت .. لكنه فى وضع رأسى ..
. هوووم ! غريب هذا ..
مد يده ليفتح الغطاء وهنا كان العود قد لسع أنامله توطئة لأن ينطفئ .. وهكذا أخرج عودًا آخر وحكه فى الجدار كعادته ثم رفعه ليتوهج ، ومدّ يده يفتح الغطاء ..

. لم يكن موصدًا بإحكام .. فى الواقع انفتح بسهولة تامة ..
وعلى الأرض تمدّد جسد أسود نحيل ، كخرقة تم تلميع حذاء بها ..
ولم يكن (موجازا) ذكيًا ..
لكنه عرف على الفور من هو صاحب هذه الجثة ..





لم يكن موصداً بإحكام .. فى الواقع انفتح بسهولة تامة .. وعلى الأرض تمدد جسد أسود نحيل ، كخرقة تم تلميع حذاء بها ..

٦ - جثة وصحراء وغيبوبة وحملة ..

أشياء تحدث ليلاً ..

حقًا هناك ـ بالتأكيد ـ أشياء وأشياء .. أشياء تحدث نهارًا وهى فى الغالب بهيجة سارة ، وأشياء تحدث ليلاً ليس بهيجًا فيها إلا رحيلها وليس سارًا إلا زوالها ..

أشياء تحدث ليلاً ..

★ ★ ★

والآن تعال نر المشهد التالى ، وهو ـ بالمناسبة ـ يحدث ليلاً :

ستة من كبار علماء (سافارى) يلتفون حول الجثمان الأسود النحيل ، كضباع تكأكأت على غزالة ضعيفة .. الفارق هنا هو أن الضباع مذعورة والغزالة تثير الفزع والتطير ..

وكان الفحص دقيقًا .. شاملاً .. بلا ثغرات ..

في النهاية مسح د. (باركر) العرق عن جبينه بكتفه لأن يديه كانتا ملوثتين ، وقال لاهثًا للمدير الذى وقف على بعد ثلاثة أمتار :

- « أعتقد يا سيدى أنه ميت حقًا .. »

تأمل المدير القلب الذى انتزعوه ، والرئتين والكبد ، والمخ الذى حولوه إلى شرائح رقيقة ، وقال :

- « حتى لو لم يكن قد مات ؛ فأنتم قمتم باللازم ! »

ثم التفت إلى د. (شلبى) - بكسر الشين وتسكين اللام طبعًا - وقال :

- « ما رأيك يا د. (شلبى) ؟ »

تنحنح المذكور بالوقار اللازم، ونزع قفازيه قائلاً :

- « لا يمكن استباق الفحص المجهرى .. لكنى واثق من أن هذا الرجل مات بحمى مخية .. ولا يوجد ما يمنع من أن يكون داء (الكَلَب) .. »

هزّ المدير رأسه فى رضا ، وغمغم :

- « سأبحث عن ذلك الفيروس اللعين بكل الأساليب الممكنة .. ولكن هل جاء واحد من قبيلته يطالب بجثته ؟ »

قلت أنا وقد جاء دورى :

- « لا يا سيّدى .. يخيل إلىّ إنهم مسرورون للخلاص منه .. »

هنا صاح (شلبى) وهو يشعل سيجاره متجاهلاً نظرات المدير و (باركر) النارية ، فالحقيقة هى أن (شلبى) فى وضع يسمح له - سنًا ومركزًا - بعمل ما يشاء دون أن يجرؤ أحد على لومه .

- « لحظة يا بروفسور .. إن الأمر كله غامض ..

« أولاً : كيف جرؤ أهل القبيلة على نقله إلى المستشفى ؟ المفروض أن سلطة الرجل كاسحة ، وكراهيته للمستشفيات شديدة .. فكيف سمح لهم بهذا ، وكيف سمحوا هم لأنفسهم ؟ »

« ثانيًا : ما هو تفسير اختفاء الجثة لنجدها فى صندوق بالقبو ؟ »

صاح المدير فى ملل وهو يلوح بذراعيه :

- « لا تهمنى التفاصيل .. فقط خلصونى من هذه الجثة المشئومة .. أبلغوا الشرطة لتتسلمها أو أحرقوها .. لا يهم .. المهم أننى لا أريدها هنا غدًا .. »

وغادر المكان قبل أن يردّ أحد ..

★ ★ ★

وبعد ساعتين بالضبط نقلوا (موجازا) إلى العناية المركزة .. كان فى غيبوبة عميقة حقًا .. عرفت هذا فى الصباح ..

★ ★ ★

وكيف كان لى كذلك أن أعرف أن (جيديون) قد أفاق من الغيبوبة بعد ساعتين أخريين ؟

كان أول ما شعرت به الممرضة هو أنه ينن أكثر من اللازم ، ثم ارتفعت يده إلى الأنبوب الخارج من فمه فانتزعه مرة واحدة ، وعمد إلى قطعة البلاستيك التى تمنع الفم من الانغلاق فبصقها ..

ثم نهض كأنما من بين الموتى ، وكأنه (أليعازر) وقد ناداه السيد المسيح .. صحيح أنه مذهول .. صحيح أنه لا يعى ما يقول .. لكنه حىّ يُرزق ..

طلب الماء ، فاحتسى أربعة أكواب كاملة حتى امتدت يد طبيب العناية يمنع الممرضة من إعطائه المزيد حتى لا يصاب بتمدّد فى الأمعاء ..

وكان أول ما قال واعيًا هو :

ـ « الصحراء ! ما أشد حرارتها ! »

وهى هلوسة لا تعنى شيئًا ، لكنها بالنسبة لطبيب

العناية بدت منطقية جدًا .. هو ذا رجل يحلم بالصحراء .. يحلم بها إلى حدّ أنه صار ظمآن كقطعة من الإسفنج فى بيت رجل لا يستحم ..

كل هذه أشياء تحدث ..

وكلها تحدث ليلاً ..

★ ★ ★

شىء آخر لم أعرفه إلا صباحًا ..

لا تلومونى فأنا لست كلِّى القدرة شامل المعرفة .. أنا مجرّد بشر لا يرى غير الجدران ولا يسمع .. وينام فى نهاية اليوم منهوكًا مفتوح الفم يصمّ شخيره الآذان ..

كيف لى أن أعرف وقتها أن ثلاثة عمال دخلوا المشرحة لنقل جثمان الساحر العجوز إلى .. إلى مكان آخر غير (سافارى) ..

وهنا كان ذعرهم يفوق الوصف حين فتحوا الثلاجة ليجدوا ألا سحرة هناك .. بالأحرى لا توجد جثث من أى نوع !

أما الصراخ الشبيه بصراخ الأرامل عندنا فى جنازات أزواجهن ، فهو صراخ الطبيب الكورى البائس (كيم) ..

هذه المرة كان يعرف أن الساحر بلا مخ ولا قلب ولا رئتين ولا كبد ، وأنه من المستحيل أن يرحل .. كما كان يعرف أنه قضى الليل جوار الثلاجة يطالع جريدة (علم الأمراض) ، ولم يغمض عينيه لحظة أو يغادر المكان إلا للتبول ، وهذا لم يستغرق سوى دقيقة ..

كان يصرخ لأن الأمر تجاوز كل منطق ..

كان يصرخ لأنه اصطدم بالمجهول الذى يحدث ليلاً ..

★ ★ ★

وهكذا لكم أن تراهنوا على أن المستشفى تحول إلى مصحة للأمراض العقلية فى الصباح ..

الكل يصرخ ويتشاجر ويتدافع ، والبحث جار فى كل مكان عن جثة ..

وفى مكتبه جلس (بارتلييه) مهمومًا تحول وجهه إلى ما يشبه الجورب المقلوب عندما تنزعه من قدمك .. وحوله ستة من السادة العلماء لهم هيبة العلم وخطورته ، وكلهم من ذوى الغلايين والسوالف المشعثة الكثة الشيباء كالصور التى تراها فى أول مراجع الطب ..

أما أنا فجلست ـ جلستى الشهيرة ـ جوار الباب مستعدًا للفرار فى أية لحظة ، وهى الجلسة التى وصفها (بسام) التونسى بأنها (مزجر الكلب) .. لم أفهم معناها لكنها بدت لى كسُبة .. فأفهمنى ـ بارك الله فى ثروته اللغوية .. أن الكلب يدنو من الطاعمين فيزجرونه .. فيقف وقفة لا هى بالبعيدة عن الطعام ولا هى بالقريبة من الإيذاء ، وينتظر ..

لا أدرى .. مازلت أشعر أنها سُبة بشكل ما ..

لقد دعانى (بارتلييه) لأننى ـ كالعادة ـ فى القصة منذ لحظتها الأولى وحتى هذه اللحظة ، وكان رأيى للأسف ذا أهمية ..

بصوت خطير مزلزل مجلجل قال (شلبى) :

ـ « أظن يا سادة أننا متفقون على ظهور وباء جديد فى (سافارى) ، وقد بدأ كل شىء من تلكم الجثة سريعة البخر .. »

هنا قال أحدهم (وهو أستاذ إيرلندى لا أذكر اسمه) :

ـ « د. (شلبى) .. نحن لم نر الحمى المخية تنتقل بهذه السرعة قط .. ثم إن أحدًا ممن هم فى غيبوبة

لم يصب بها .. لقد قمت بدراسة أشعة المخ ورسمه
لكل الضحايا .. ويمكننى أن أؤكد أن هذه ليست حالات حمى مخية .. »

قال (بارتلييه) وهو يدير القلم بين أصابعه :

ـ « لا شىء ينقل المرض فى الطب سوى العدوى .. وما دامت هناك عدوى فهناك كائن ـــ فيروس أو باكتريا ـ ينقلها .. وعلينا أن نجده .. وأنا لا أتحدث عن الحمى المخية هاهنا .. »

قال (شلبى) وهو يشعل سيجارًا :

ـ « لحظة .. ثمة نقطة أخرى .. لماذا تصرّ هذه الجثة على الاختفاء كلما ألقينا القبض عليها ؟ »

قال (بارتلييه) :

ـ « الجثث لا ترحل لمجرد أنها لا تحبنا .. هناك من يصرّ على سرقتها ، ولعل أحد العاملين هنا من قبيلة الساحر ذاتها ، وهو لا يريد أن يمس أحد جثة ساحرة المقدس .. »

ثم نظر لى حيث جلست (مزجر الكلب) على رأى (بسام) :

ـ « (علاء) .. كيف حال (جيديون) و(جابرييل) ؟ »

نظرت لى ستة أزواج من العيون المرتابة ، فابتلعت ريقى وقلت فى شىء من الحرج :

ـ « بخير يا سيدى .. مازالا فى ارتباك واضطراب فكر لكنهما بخير .. ويبدو أن بوسعهما مغادرة الفراش غدًا .. »

ـ « والألمانى ؟ »

ـ « (هانس) فى غيبوبة عميقة ، وقد أصيب بالتهاب رئوى حادّ جعل حياته فى خطر داهم .. »

ـ « و .. وذلك العامل ؟ »

ـ « (موجازا) ؟ لم يُشف بعد .. »

وللجالسين حكى (بارتلييه) دورى فى القصة ، منذ جاء الساحر مقيدًا إلى الوحدة ، وحتى عملية تشريحه أمس .. ثم قال :

ـ « والآن .. أعتقد أن خير ما يمكن عمله هو إيفاد د. (عبد العظيم) إلى تلك القبيلة ، ليفهم حقيقة ما نحن بصدده .. »

ابتلعت ريقى من جديد ..

لِمَ لا ؟ تبدو فكرة لا بأس بها أبدًا .. إننى بحاجة إلى تغيير روتين حياتى الممل هاهنا .. وآخر حملة قمت بها هى التى كدت أُؤكل فيها عند (الكيكويو) .. ربّاه ! لم يكن هذا هو التغيير الذى طلبت ..

قال (آرثر شلبى) :

ـ « هذا هو الرأى القويم .. ويمكننا معرفة آخر من رآهم الساحر وهل أصيبوا بداء من ذات النوع؟ »

وقال طبيب آخر مؤمنًا :

ـ « المسح .. هذا هو الحلّ الصائب .. لكن هل يقدر هذا الشاب على مهمة كهذه ؟ ما أحسبها إلا تتطلب فريقًا ؟ »

فى خبث كدأبه قال (شلبى) :

ـ « إن الصبى جرىء نشط .. ويمكن اعتبار رحلته الأولى كشفية يليها إرسال فريق كامل مُجهز ..»

هكذا ورّطنى وكنت أتوق بحق إلى الصحبة ، لكن الأمر راق لـ (بارتلييه) الذى وجدها فرصة لتخفيض النفقات ..

قال بلهجة من لا يقبل نقاشًا :

ـ « إذن استعد يا (علاء) لزيارة تلك القرية غدًا .. ولكنك تحتاج إلى مترجم .. خُذ .. خُذ معك .. أ ...... »

من غير (بودرجا) المسكين ؟ »

لقد رأيت هذا الفيلم مرّة أو أكثر من قبل !

* * *

٧ - سحر (مولوك) ..

أشياء تحدث ليلاً ..

لكن حملتنا بدأت فى ضوء النهار ، حيث بدا أن الأمور لن تكون سيئة أبدًا .. فالسيئ غالبًا ما يحدث ليلاً ..

★ ★ ★

والآن تعال معنا ولتعش تلك اللحظات :

سيارة (اللاندروفر) الخاصة بـ (سافارى) تشق طريقها تحت لهيب الشمس متجهة إلى قرية الساحر ، والتى وجدناها فى سجلات المريض ..

وعلى الجانبين يقف الفلاحون يرمقوننا ، بعضهم دسّ كفيه فى حمالتى فانلته الداخلية وتصلّب بانتظار معرفة من نحن وأين نحن .. عربات يتم تحميلها بالفاكهة ، وعربات امتلأت بالعمال الأفارقة كلهم ينظرون لنا فى حيرة ..

إن شعار (سافارى) المرسوم على سياراتها

غريب دائمًا .. فهو لا يدلّ على الصليب الأحمر ولا على الأمم المتحدة ولا على الحكومة ..

ولم تكن القرية بعيدة .. وقد وصلنا هناك بعد ساعة ونصف ..

★ ★ ★

التف أطفال فضوليون حول العربة ، فسألهم (بودرجا) عن زعيم القرية .. ولم تمر لحظات، حتى كنا جالسين فى دار من الطين ، أمام رجل بدين أصلع الرأس لا يكف عن التهام الموز والكلام ..

بدأ (بودرجا) يحكى له القصة كلها ، والزعيم يصغى وعيناه تجحظان اهتمامًا ورعبًا وكأنه يوافق على كل حرف ، وعنده فكرة عن كل ما يقال هاهنا ..

فى النهاية راح يتكلم بلا توقف بصوت غليظ بدين بدوره ..

قال (بودرجا) متابعًا كلمات الزعيم :

- « يقول الزعيم (موبوكا) إن ساحر القبيلة قد جُنّ ، وإن الأرواح الشريرة قد سيطرت عليه .. إن هؤلاء القوم يؤمنون بالطب ويعرفون أنه يصنع معجزات كثيرة .. إن الجروح تُشفى برغم أن

السـاحر قرأ عليهـا أدعيـة كثيرة لكنه فشل .. الأطفال المحمومون ينجح الطب فى إعادتهم للصحة بينما ينجح الساحر فى قتلهم .. لهذا خطر لهم أن ينقلوا الساحر إلى (سافارى) عسانا نجد علاجًا له هناك .. وبالطبع كان من المستحيل إقناعه بـأن يخضع لسحر الرجل الأبيض ، لذا قيدوه بالحبال وحملوه حملاً إلى هناك بعربة الإسعاف .. »

سألت (بودرجا) وأنا أتأمل الزعيم :

- « لماذا لم يأت أحد ليطالب بجثته ؟ »

أصغى الزعيم إلى السؤال المترجم هنيهـة ، ثـم ضحك بصوته الغليظ ولم يعلق .. وهو صمت له أكثر من معنى ..

عدت أسأل :

- « هل تعرض لعضة ما قبل إصابته بالمرض ؟ »

الجواب : لا .. ولو تعرض فلن يخبر أحدًا بل سيعالج نفسه بنفسه ..

- « هل لديهم فكرة عما يحدث فى (سافارى) ؟»

تكلم الزعيم كثيرًا جدًا ردًا على هذا السؤال الأخير .. ووجدت أن (بودرجا) كف عن الترجمة فاستحثثته بكفى كى يتذكرنى ..

قال (بودرجا) وهو يحفر الأرض - حيث جلسنا - بسبابته :

- « يقول إنه يعرف بوجود متاعب .. فالساحر كان شيطانًا حقيقيًا ولا بد أنه استنزل لعناته على (سافارى) .. فهو كان ساخطًا عليها منذ البداية .. »

« يقول لنا أن نأخذ الحذر لأن (مولوك) - وهو اسم الرجل - لا يموت .. بل ينتقل ليحل فى جسد آخر و ...... »

أطلقت تنهيدة ملل ونظرت فى اتجاه آخر :

- « آه ! هل عدنا لهذا الكلام الممل ؟ »

طقطق (بودرجا) بلسانه منذرًا ، وقال :

- « لا تظهر الامتعاض يا دكتور وإلا فمن الخير أن تظل فى دارك .. إن هذه الخرافات تمثل لهؤلاء القوم دينهم ، ولا أحد يقبل أن يسخر غريب من دينه .. »

بدا لى الكلام حكيمًا ، فتمالكت أعصابى وسألته :

- « ليكن .. ومن أدراهم أنه لا يموت ؟ »

- « عيناه .. يقول إن (مولوك) قد يحل فى أى جسد وبأى مظهر ، لكن العينين تقولان دومًا إنه هو .. »

ـ « فهمت .. كمن يتنكر فى ثياب أنثى ويضع مساحيقها ، لكن شاربه يظل كثًا واضحًا للعيان .. »

ـ « ويقول إن ما نتحدث عنه كجثة (مولوك) ليس سوى وعاء انتهى نفعه .. »

ـ « جميل .. سله إذن عن اختفاء الجثة المتكرر .. »

وجه (بودرجا) سؤالاً أو سؤالين سريعين ، ثم قال لى :

ـ « يقول إنه لا يعلم .. لكنه لا يستبعد أن يكون (مولوك) طليقًا الآن فى (سافارى) يجول مفتوح البطن ! »

ـ « ومن دون مخ ولا كبد ! »

وارتعدت للفكرة ..

لكنى ارتعدت أكثر حين تصورت أننى أقول هذا الكلام الفارغ للبروفسور (بارتلييه) عند عودتى .. ماذا وجدتم يا (علاء) ؟ وجدنا أن (مولوك) يتمتع بقوى سحرية هائلة يا سيدى ..

كان هذا فوق احتمال أى شخص حتى لو كان (بارتلييه) ..

ونظرت للزعيم ، وأدركت أننا لن نحصل منه على المزيد .. قلت لـ (بودرجا) أن يشكره ويعده بعودتنا لمزيد من التفاصيل ..

هنا مدَّ الزعيم يده إلى عنقه ، وانتزع قلادة فى طرفها ما يشبه سلة مجدولة من الخوص ، وقال أشياء ..

هززت رأسى بمعنى أننى لا أستطيع قبول هدية كهذه ، وأننى زاهد فيها كل الزهد ، لكن الرجل أصرَّ وأسنانه تلتمع فى ضوء الشمس.. وقال لـ (بودرجا) ما عرفت معناه فيما بعد :

ـ « لقد كانت تحمينى من (مولوك) حين كان بيننا .. اليوم أنتم أحوج إليها منى .. »

وأشار لى كى أطوق بها عنقى ففعلت ..

كانت خشنة لها ملمس غير مريح ، ومن السلة الصغيرة سمعت صوت خرفشة من النوع الذى يؤذى مسمعك .. صوت يحطم الأعصاب، كصوت الـ (فوم) الإسفنجى الذى يغلفون به الأجهزة الكهربية حين تحتك قطعتان جوار أذنك .. هل تعرف هذا الشعور ؟

الحق أننى لم أحبَّ هذه القلادة لحظة .. لكنى ابتلعت فكرة وجودها ..

وفيما بعد عرفت أن الزعيم قال لـ (بودرجا) وهو لا ينظر إلىَ :

ـ « خذ الحذر مع زميلك هذا وراقبه حسنًا .. لقد بدأ (الوسم) يظهر على وجهه ! »

★ ★ ★

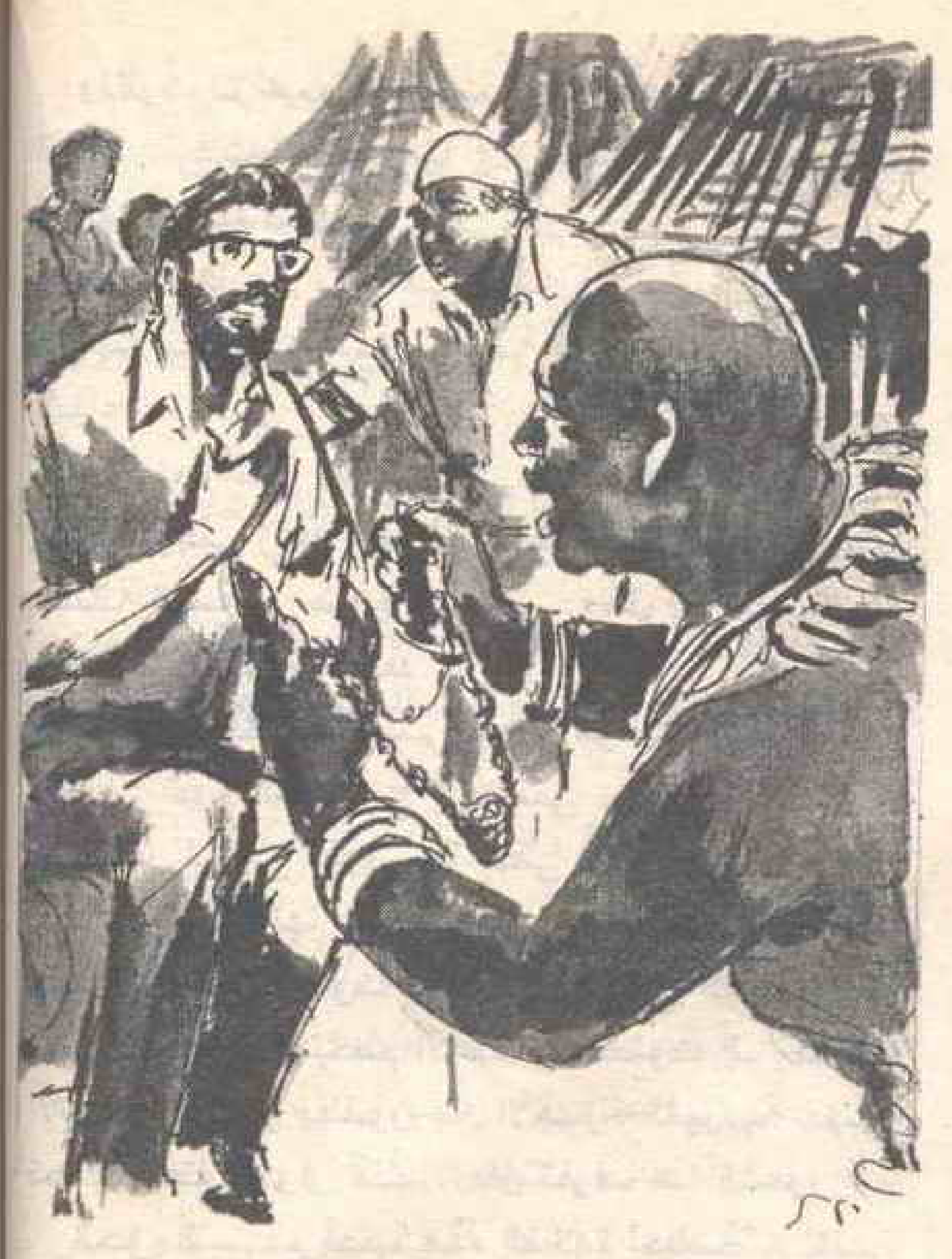
لكن (بودرجا) لم يخبرنى بشىء ..

حتى فى طريق العودة الطويل لم يقل شيئًا ..

فقط حين مددت يدى إلى القلادة البغيضة أنزعها من حول عنقى ، وأوشك أن ألقيها بعيدًا ؛ عندها مدَ (بودرجا) يده يمنعنى .. ولما رأى علامات الدهشة على وجهى قال :

ـ « اتركها يا دكتور .. نحن لا نعلم الكثير عن أساليب هؤلاء القوم .. »

نظرت له ثم للقلادة .. أنا لم أرتد شيئًا كهذا منذ نجاحى فى الشهادة الابتدائية وإصابتى بالحمى بعدها .. لقد أرغمتنى أمى على ارتداء حجاب حول عنقى لمدة شهرين ، ولكم من سخريات تلقيت من زملائى حين كنت أخرج بالحجاب إلى السوق .. إلى الشارع لألعب الكرة .. إلى ديار جيراننا .. ويوم



هنا مدَ الزعيم يده إلى عنقه ، وانتزع قلادة فى طرفها ما يشبه سلة مجدولة من الخوص ..

تخلصت منه ـ أخيرًا ـ عرفت فائدة العلم .. مع العلم لا يستطيع أحد أن يرغمك على ارتداء حجاب أو تعويذة .. لكن ها هو ذا الموقف يتكرَر ..

والغريب هنا أننى غير قادر على اتخاذ القرار الحاسم ..

وفى خزى تركت القلادة تتدلى من عنقى ، وإن داريتها خلف القميص كى لا يشعر بها أحد ..

★ ★ ★

قدمت تقريرى الردئ إلى المدير ، ولا داعى لأن أقول إنه راح يضرب كفًا بكف .. فى النهاية فتح الدرج وأغلقه ، وهى حركة عصبية خاصة به معناها أنه يتمنى فتح بطنى وإخراج أحشائى .. ثم قال وهو يلهث :

ـ « هل لديك ما تضيفه ؟ »

ـ « لا يا سيدى .. »

ـ « إذن اذهب ونم .. وفى الصباح حاول أن تقنعنى أكثر .. »

وهكذا فارقته .. كان الإنهاك يغمر جسدى ، وأدركت أننى سأنام كجثة فى قبو مظلم ؛ ولم أكذب خبرًا ..

★ ★ ★

لكن الصوت ضايقنى ..

صوت الخرفشة الذى حدثتك عنه .. أحيانًا هو صوت قطعتى (فوم) تحتكان ، وأحيانًا هو صوت ربطة ثوم بدأت أمى فى تقشيرها من أجل الملوخية ..

المهم أنه صوت خافت .. بشع .. قمئ ..

وتحسست القلادة على صدرى فى الظلام ، وهمست بصوت مسموع :

ـ « ثمة شئ حىّ بداخل هذه ! أقسم باللّه إن شيئًا حيًا بداخل هذه ! »

★ ★ ★

٨ - استحواذ ..!

أشياء تحدث ليلاً ..

كما قلنا مرارًا : هناك أشياء وأشياء .. لكن الاشيء التى تحدث ليلاً تكون خافتة أو مريبة أو لها صوت كالحفيف ..

أشياء تحدث ليلاً ..

* * *

وهكذا يمكننا فهم ما حدث :

لقد غادرت الغرفة شاعرًا بالاختناق والحيرة ، وفى ذهنى خاطر واحد ما من شىء سواه ؛ هو أن أتخلص من هذه القلادة .. لا تسيئوا فهمى .. أنا لم أعتقد فيها لحظة لكن السحر عامة يبعث فى النفس شعورًا من عدم الارتياح وربما التقزز .. حتى لو كنت تؤمن بأنه هراء ..

كان الظلام يغمر الممر الذى يضمّ غرف الأطباء ..

المقيم منهم ومن يسمونه (طبيب الدار) وهو ما نسميه نحن بطبيب الامتياز ..

فى نهاية الممر نافذة .. صحيح أنها مغطاة بالسلك الواقى لمنع البعوض من قتلنا بالملاريا ، لكنها تصلح لأرى الليل منها وأشم هواءه النقى البكر .. وعند قدمى سلة مهملات تصلح تمامًا للتخلص من .....

صوت خطوات ..

ونظرت إلى الوراء ..

كان يمشى فى الممر عائدًا إلى غرفته ، وظهره لى ..

محنى القامة ينظر لقدميه .. لكنى أرى بقعتى الضوء تفترشان الأرض أمامه .. ما مصدر هذا الضوء ؟

مصدره كشافان بالتأكيد .. لكن أين هما ؟

يمكن - بشىء من الخيال - أن أقول إن الضوء يخرج من عينيه ! إذن لماذا لا أخاف وأصرخ ؟

لأن الضوء لا يخرج من عيون الناس أبدًا ؛ ولأن (ابن الهيثم) برهن على ذلك من عهد طويل ،

حين كان العلماء يحسبون العين تطلق شعاعًا ترى به الأشياء ..

وفى كياسة ناديته بصوت رفيق :

ـ « أ .. د. (جابرييل) .. »

هنا انطفأ النور كأنما ضغط على الزر .. وسمعته يقول فى الظلام :

ـ « من ؟ »

ـ « هذا أنا .. (علاء) .. هل تشكو من أرق ؟ »

التفت لى .. ثم بدأ يتجه نحوى ببطء ووجهه فى اللون الأسود الكثيف :

ـ « كلا .. لقد انتهيت الآن فقط من الـ ..... »

يدنو أكثر .. ولا أشعر براحة كثيرة إزاء مشيته المتصلبة :

ـ « .. مرور بالعنابر .. إن هذه الحالات لم .... »

و (جابرييل) عادة متردد قلق كثير الحركة .. هذا الثبات غير معهود فيه ..

ـ « يرها أحد منذ أن أصبت بالغيـ ..... »

وهنا وصلت إلى قرارى سريعًا :

هذا القادم ليس (جابرييل) !

★ ★ ★

كانت عيناه جاحظتين نافذتين ..

لم أعهد قط هاتين العينين فى (جابرييل) ..

وعلى الفور تذكرت أين رأيت هاتين العينين من قبل ..

★ ★ ★

وحين ضحك كان الشيطان نفسه يضحك ، والأسنان اللامعة البيضاء تبدو كأنياب فى الظلام ..
صوته قد اختلف كثيرًا وأسلوبه :

ـ « إنك فى طريقى دائمًا أيها الشاب الصغير .. »

وكنت أنا فى وضع مقلق بحق .. ظهرى للنافذة ووقفتى متحفزة ملأى بالتوتر .. لا أستطيع التراجع أكثر ..

رباه ! شىء ما يقول إننى لن أستطيع قهره لو ضربته ..

إنه أقوى منى بالتأكيد ..

★ ★ ★

لكن العينين توقفتا لحظة عند صدرى ..

عند موضع القلادة ..

الوجه الأسود يكفهر ويكشر عن أنيابه أكثر ..

أقسم إنه أطلق فحيحًا من فمه شأن مصاصى الدماء فى أفلام (هامر) حين يرون ضوء النهار ..

وفى اللحظة التالية حدث شىء لا يُصدَق ..

ببساطة تراخى كتفاه ، وكفَّ جسده عن التوتر ، وزال التعبير المريع الجشع عن وجهه ..

ودون كلمة أخرى استدار متجهًا لغرفته ..

هذه هى مشية (جابرييل) الذى أعرفه ..

★ ★ ★

ولكم أن تراهنوا على أننى لم أستطع النوم لحظة طيلة ما بقى من الليلة ..

وحين تسلل شعاع النهار الأول من النافذة لم أشعر قط من قبل أن غرفتى بهذا الجمال وفراشى بهذه الراحة .. لقد بردت الجدران أخيرًا وغدا كل شىء معدًّا لنوم هادئ حتى الظهر ..

لكن - للأسف - هذا هو موعد الاستيقاظ ..

واتجهت إلى الكافتريا متثاقلاً أجرّ قدمىّ ، وسمعت

(برنادت) تقول (هاى) وتكوّر أنفها - لم أر هذا لكنى سمعته - فلوحت بكفى فى الهواء ، وجلست إلى المائدة مرهقًا مضعضعًا ..

قال لى (ببير) وهو يتخذ مقعده جوارى :

- « هل بلغك ما حدث أمس ؟ »

- « (جيديون) قد أفاق من الغيبوبة .. إذن لا بد أن (هانس) قد ...... »

- « بالضبط .. لقد أفاق أمس .. »

- « وماذا عن عامل الكهرباء إياه ؟ »

- « مازال فى غيبوبة .. لكن الأمور تدعو للتفاؤل كما ترى .. »

نظرت له مليًا .. وفكّرت فى أن أزور (جيديون) الآن ..

★ ★ ★

وكان (جيديون) قد عاد لممارسة عمله ..

طبيب (الباثولوجيا) اليهودى العجوز لم يعتد أن يمرض .. وأنا لم أحبه قط لكننى كنت أحترم علمه ومثابرته برغم كل شىء ..

كان فى المعمل الملحق بالمشرحة مع (كيم) عاكفًا على فحص بعض الشرائح تحت المجهر ، وجواره طبيب ألمانى شاب يدوّن فى نهم ما يقوله الرجل ..

هنأته على سلامته فابتسم ابتسامة جانبية باهتة ، وواصل ما يقوم به .. سألته عن تفسيره لما حدث فبدا ممتعضًا .. هذه أمور خصوصية لا يحق لى الكلام عنها .. ثم إنه لا يملك تفسيرًا طبعًا ..

وجلست صامتًا أتأمل مايقومون به .. ثم رفعت عينى فجأة ..

كان (جيديون) ينظر إلىّ نظرة ثابتة وقحة بعينين لا تطرفان ..

هاتان العينان ! إننى أراهما أكثر من اللازم فى هذه الأيام ..

مددت يدى إلى صدرى وأخرجت القلادة ..

تحسستها بأناملى ، ورفعت عينى بحذر نحوه ..

أدركت على الفور أن الأمر كما توقعت ..

لقد كان يرمقها باشمئزاز ومقت شديدين ، وبدا أنه يقاوم رغبة جامحة فى الفرار لكنه لا يجرؤ ..

العينان عينا (جابرييل) .. والنظرة نظرته حين رأى القلادة ..

لم يعد فهم ما يحدث عسيرًا ..

* * *

دوّى الصراخ فى الطابق كله ، فغادر من كان موجودًا من الأطباء غرفته ليرى ما هناك .. وعلى أبواب الغرف تبادل الجميع نظرات الحيرة والتساؤل المعترف بها دوليًا ..

ثم اندفع الجميع نحو غرف الطبيبات حيث دوّت الصرخة ..

والحكاية حكاية تافهة جدًا .. لقد وجدت الدكتورة (ماى - فاى - لين) الصينية رجلاً فى غرفتها .. إن هذه الأشياء تحدث .. وجدته فى خزانة الثياب .. لا بأس .. لقد سمعنا عما هو أسوأ .. لم يكن رجلاً فحسب بل كان رجلاً ميتًا .. هذا شىء معتاد .. لكنه - بالإضافة إلى ذلك - بلا مخ ولا كبد ولا رئتين ..

هنا بدا لى الأمر مألوفًا ..

قليلة هى الجثث التى تمشى مفتوحة البطن بلا أحشاء ..

مددوا الوغد على الأرض فوق ملاءة ، وغطوه بملاءة أخرى من غرفة الطبيبة الصينية المذعورة التى راحت تتحدث بلغتها الشبيهة بدقات الأجراس ، ومن فمها خرجت مئات النقوش الصينية المعقدة المرسومة بالحبر الشينى ..

جاء المدير أخيرًا يهزّ جسده الشحيم ، فتوقف أمام الجثة وتأملها .. ثم صاح :

ـ « لا أريد هذا الوغد ثانية أخرى هاهنا .. خذوه إلى أى مكان بعيدًا عنى .. »

هتف د. (باركر) :

ـ « لكن لا بد من وجود بصمات .. هناك من سرق الجثة وأخفاها ، ثم جرّها جرًا إلى هنا .. لا بد من بصمات على الباب .. إلخ .. »

نظر له (بارتلييه) مليًا ، وقال ضاغطًا على كلماته :

ـ « ولكن أين أخفاها من أخفاها ؟ إن رجالى لم يتركوا حجرًا فوق حجر فى (سافارى) كلها .. إن الأمر يتجاوز المنطق العلمى يا شباب .. كفى عن الصراخ من فضلك ! »

كذا صاح فى (ماى ـ فاى ـ لين) غاضبًا .. فقد أوشكت على تحطيم أعصابنا جميعًا .. كل هذه الضوضاء من أجل جثة بلا أحشاء فى غرفتها ؟

ماذا تفعل إذن لو وجدت فأرًا ؟

كان ثلاثة عمال عاكفين الآن على نقل الجثة إلى حيث ألقت ، حين دنوت من البروفسور المحتقن لأسأله :

ـ « هل وجدتم فيروس الكلب يا سيدى ؟ »

ـ « لم نجد أى شىء لعين .. إن هذا الوغد لم يمت بالحمى المخية بكل تأكيد .. تسأل عن تفسير ؟ لا أدرى تفسيرًا .. إن هذه الوحدة قد ذهبت إلى الشيطان بكل من فيها ولم يعد إنقاذها سهلاً .. »

عدت أسأله فى إصرار :

ـ « هل ؟ »

أدار ظهره لى بطريقة مهينة ، معلنًا أن وقت الأسئلة قد انتهى .. وهكذا لم أر ما أفعله سوى أن أعود إلى حجرتى ..

كان الوقت عصرًا والحرّ خانقًا .. حتى بدأ العرق يتساقط من حاجبىّ ويحرق عينى .. العرق واللعنات

على إدارة (سافارى) البخيلة التى لم تقم بتركيب أجهزة تكييف فى حجراتنا ، باعتبار هذا ترفًا يتحمل الطبيب نفقته من حسابه الخاص ..

سمعت قرعات على الباب ففتحته ..

كان القادم هو د. (جابرييل) .

★ ★ ★

٩ - أنقذوهم من (مولوك) ..

أشياء تحدث ليلاً ..

ثمة أشياء وأشياء .. لكن لكل قاعدة استثناء ، والاستثناء هنا هو أن تحدث أشياء مرعبة عصرًا ..

★ ★ ★

والآن خذ عندك المثال التالى :

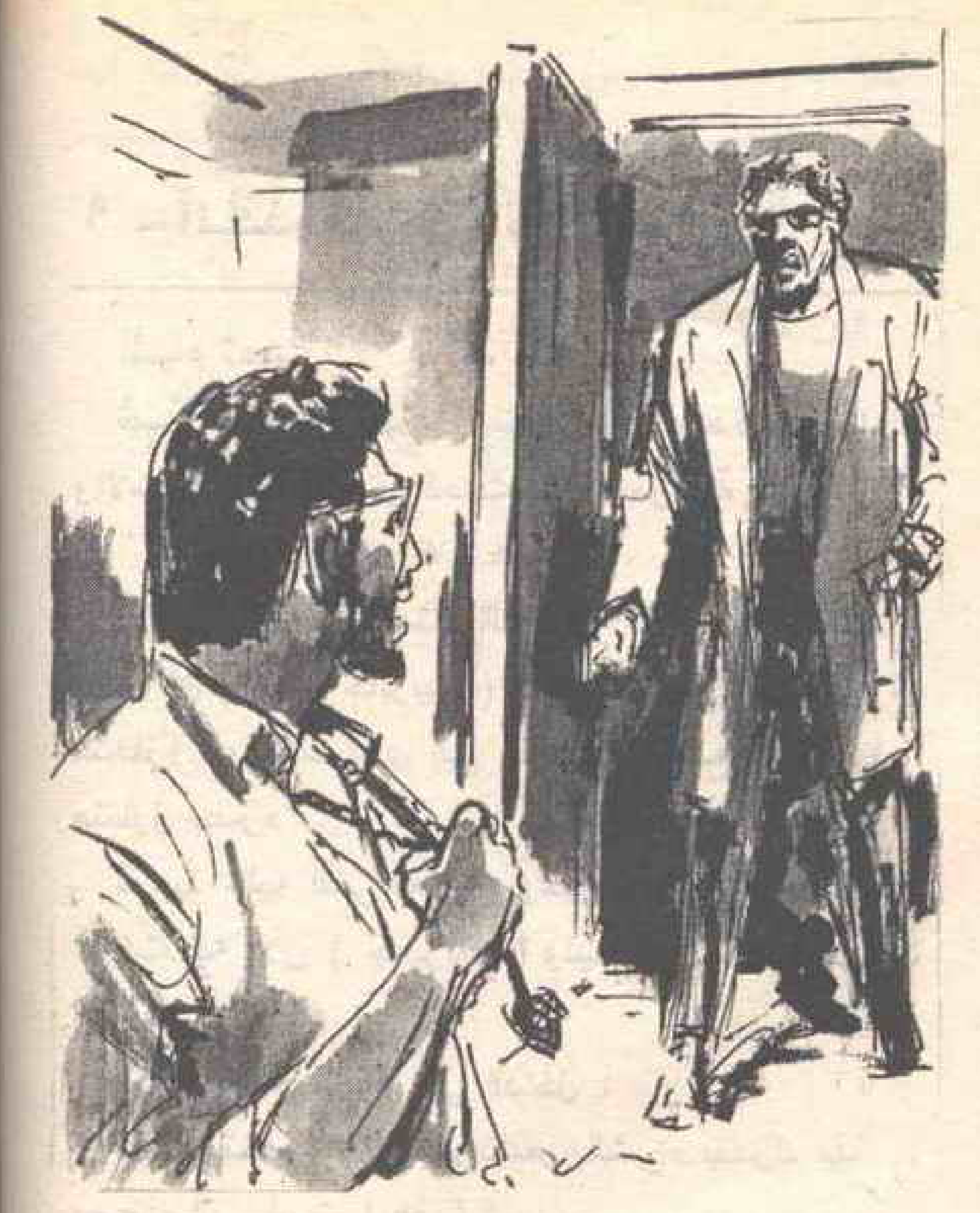
ما إن رأيت (جابرييل) حتى تراجعت إلى الوراء متحفزًا ، ومددت يدى إلى صدرى لأرفع القلادة فى متناول بصره ..

لم يبد عليه أدنى تغيير .. وحين تأملت عينيه جيدًا، أدركت أنه الآن (جابرييل) وليس الآخر .. تنهدت وتراجعت للوراء ..

قال لى وهو يخطو إلى الداخل :

- « لا تخف .. أنت لم تشعر بالشىء يتحرك بها .. ومعناه أننى لست (هو) ! »

جلست على طرف الفراش ، وبإصبعى مسحت



ما إن رأيت (جابرييل) حتى تراجعت إلى الوراء متحفزاً ، ومددت يدى إلى صدرى لأرفع القلادة فى متناول بصره ..

العرق عن جبينى فانهمر كصنبور الماء ، وقلت :

ـ « تبدو لى على علم بما يحدث .. هل تعنى أن الصوت البشع إياه يعنى أن القلادة تعمل ؟ »

ـ « بالتأكيد .. إنه كصوت عدّاد (جايجر) عندما يجد بعض (اليورانيوم) .. »

ـ « لكنها ـ القلادة ـ لم تكفّ عن الخرفشة وهى على صدرى .. »

ـ « كانت تعمل كذلك .. وقد شعرت بأن جزءًا منك يتحول إلى (مولوك) لهذا راحت تمارس عملها معك حتى طهرتك ! »

غطيت وجهى بكفى منهكاً :

ـ « د. (جابرييل) .. لا تنس أننا نتكلم عن خرافات .. »

ـ « يا بنى نحن فى (إفريقيا) حيث يصعب العثور على الخطّ الفاصل ما بين الخرافة والحقيقة .. من يدرى ؟ ربما نحن لم نتجاوزه بعد .. وربما كانت هناك حقيقة تقول إن (مولوك) يملك قدرة على الاستحواذ الشيطانى .. وربما هناك حقيقة تقول إن هذه القلادة تمنع سيطرة (مولوك) .. »

- « ومن أدراك بكل هذا ؟ »
ابتلع ريقه وتحاشى نظراتى ، وغمغم :
- « أنت تعرف جيدًا أننى تحت الاستحواذ الآن .. وفى أية لحظة سيكون هو المسيطر على كلامى ونظراتى .. »
قلت له وأنا أسترخى للوراء :
- « دعنا نرتب أفكارنا .. لماذا لم يستحوذ (مولوك) على كل من تعاملوا معه ؟ »
- « إنهم لم يلقوا بالاً إلى عينيه .. أعنى كل من لم يتأثروا به .. كل من صاروا فى قبضة (مولوك) لاحظوا عينيه القويتين وتأثروا بها أكثر مما يجب ..»
- « هذا حق .. (هانس) وأنا وأنت و(جيديون) وبالتأكيد (موجازا) .. كلهم تأثر بالعين وأطال النظر لها .. »
أكمل كلامى وقد صرنا على نغمة واحدة :
- « كأن (مولوك) حين شعر بدنو نهايته ؛ أزمع أن يوجد خمسة منه بعد وفاته .. »
قلت أنا ملتقطًا الخيط :
- « و (مولوك) نفسه ليس هو الأصلى .. إنه

آخر وعاء اختاره الساحر الشيطانى الذى عاش منذ عدة قرون وكانت له العينان ذاتهما .. ولكننى لا أفهم سرّ رغبة (مولوك) فى إيجاد آخرين مثله .. »
حكّ شعره الرمادى المجعد ، ومسح قطرات العرق:
- « هذه هى فطرة الشرّ الطبيعية : أن ينتشر .. أن يملأ الأرض .. ثم هى كذلك غريزة كل كائن حىّ : أن يغدو اثنين أو ثلاثة أو أكثر .. »
سألته وأنا أتحسس القلادة :
- « وما هى الخطوة التالية ؟ ماذا سيفعل كل هؤلاء الـ (مولوكات) ؟ »
نهض وأولانى ظهره كأنما يجد عسرًا فى الكلام ، وهمس :
- « أحيانًا .. حين تتملكنى الرغبة الشيطانية .. أشعر بأننى أريد أن أرى الدمار فى كل صوب .. أشوه كل وجه جميل .. أنتزع كل زهرة .. أنثر الدمع فى عيون الأطفال .. أرى لون الدماء الأحمر يعمّ الكون ليمحو خضرة المرج وزرقة السماء .. أريد أن أسمع من يتوسل لى طالبًا الرحمة ، عالمًا ألا جدوى هنالك وأننى سأقتله ! »

ـ « يا للهـول ! »

(وهذا ما كنت فى الممر أمس تحاول عملـه) .. قلتها فى سرّى ولم أعلنها .. وارتجفت حين تخيلت ما كان سيحدث لو لم تكن القلادة معى ..

أخيرًا سألته وأنا أجفف عرقى بمنشفة :

ـ « لكن يبقى سؤال واحد : ماذا سنفعله .. »

تناول المنشفة منى ليجفف عرقه (اللعنة ! عادة غير صحية .. لقد حان وقت غسيل هذه المنشفة إذن) .. وقال :

ـ « أنا لم أتطهر بعد .. لكننا نعرف أنك تطهرت .. لهذا حان دورى فى ارتداء القلادة بعض الوقت .. وبعد هذا يجىء دور (جيديون) فالباقين .. »

لم أر ما يمنع .. فمن حقه أن يضمن النجاة مثلى.. إن هـذه القـلادة لقـادرة وأنا جربت بنفسى ما هى مستطيعة عمله .. كل هذا يبدو سخيفًا لكننى مضطر إلى مجاراة هذا السخف ..

ناولته القلادة فأحاط بها عنقه الأسـود شـاكرًا ، ثم نهض ..

سألته وهو يفتح الباب :

ـ « كم من الوقت تظن أنك ستحتاج إليها ؟ »

مطّ شفته السفلى أن لا يدرى :

ـ « ربمـا ليـوم أو يومين .. لا تشـغل بالك .. سأشعر بتحسن أكيد .. »

وفجأة ـ ومـن حيث لا أتوقـع ـ جحظت عينـاه كالمجانين ، وسمعت الصوت الذى سمعته أمس :

ـ « هاهاها ! أحمـق ككـل مـن فى سـنك أيهـا الشاب !! »

نهضت كالملسـوع نحـوه ، ولاحظـت أن صـوت الخرفشة راح يتعالى ..

لكنه كان قد انـتزع القـلادة مـن عنقـه ، وفـى يده اليمنـى قداحـة مشـتعلة .. اللهـب .. اللهب يدنـو مـن القلادة المصنوعة من قش مجدول ..

ربّاه ! لقد احترق القش بسرعة جهنمية ..

وهنا عرفت سرّ الخرفشة الذى أرقنى .. وتـأوهت بصوت مسموع ..

كانت هناك خنفسة عملاقة تثـب فـى الهـواء ، وقـد اشتعلت النار فى جسدها وعلى الأرض سقطت ترفرف بجناحيها ..

لقد نمت وهذا الشيء على صدرى !

راحت تتلوى والدخان يتصاعد منها ، ثم انقلبت على ظهرها وهمدت نهائيًا .. وأفعم الدخان الأسود الغرفة ..

وأفقت من ذعرى على صوت (جابرييل) الغليظ يقول وهو يتوارى :

ـ « إلى الليل أيها الساذج الصغير ! »

★ ★ ★

يا حمقى العالم .. اتحدوا !

★ ★ ★

كانت أكبر خنفسة رأيتها فى حياتى ..

لم أكن خبيرًا فى موديلات الخنافس ، لكننى فى (سافارى) حيث يوجد من هو خبير فى أمور كهذه .. لم تكن تفحمت كلها لذا لففتها فى منديل ورقى بحذر ، ثم نهضت .. سيكون لدىّ وقت كاف فيما بعد كى ألوم نفسى على حماقتى وغبائى واندفاعى .. أما الآن فعلىّ معرفة كنه هذه الخنفسة ..

غادرت غرفتى بعد ما ارتديت ثيابى ..

واتجهت إلى معمل الطفيليات الخاص بـ (سافارى) ؛ حيث الدكتورة (هيلين ماكنلى) .. عالمة الطفيليات الاسكتلندية ذات الروح المرحة والوجه الطفولى العذب ..

كنت أعرف أننى سأجدها لأنها السادسة مساء .. وهى فى المعمل دائمًا فى وقت كهذا لأنها ـ على غير عادة البشر ـ لا تنام عصرًا حتى لو لم تكن مرتبطة بعمل ..

وكانت هناك فعلاً عاكفة على دراسة مسحة من الطحال امتلأت بطفيل (ليشمانيا) اللعين ..

دون كلمة تقديم وضعت أمامها المنديل ، وفتحته كى أريها ما به .. ثم وجهت سؤالى : ما هو نوع هذه الخنفسة ؟

ضحكت ضحكتها الطفولية ، ووضعت عويناتها وهى تقول :

ـ « يا له من حماس علمى ! اسمع يا (علاء) .. لست خبيرة فى علم الحشرات كما تظن .. أنا فقط خبيرة فى الحشرات المتطفلة .. ولكن .. دعنا نر هذه الحسناء جيدًا .. »

وتحسست أجزاء فمها بظفرها .. وقلبت الجناح ..
ثم قالت :

- « غمدية الأجنحة .. لا جدال فى أنها خنفسة ..
ولكن .. إنها من رتبة (آديفاجا) .. أى الخنافس
آكلة اللحوم .. واضح هنا أنها تشبه .. »

ورفعتْ إصبعًا محذرًا كى لا أسيىء فهمها :

- « أقول تشبه خنفسة النمر (سيسندلا كامبتريس) ..
هذا لا يعنى أنها هى ...... »

- « هل تزأر كالنمر مثلاً ؟ »

ضحكت حتى دمعت عيناها ، وقالت :

- « لا .. بحق السماء لا .. إن سرعة حركتها
وفكوكها المسنونة هى ما أوحى بهذا الاسم .. وهى
تدفن يرقاتها فى الرمال بحيث تظل رءوسها خارج
الرمل .. ويسهل عليها بهذا أن تلتهم أية حشرة
غافلة تمشى فوقها .. ولكن .. ولكن لماذا أحرقت
هذه الحشرة الجميلة يا (علاء) ؟ »

ناولتها ورقة وقلمًا وسألتها أن تكتب الاسم اللاتينى
المعقد لهذه الحشرة.. إن رطانة العلماء تثير غيظى..
حشرة بريئة لا ذنب لها كهذه سرعان ما يُحكم عليها

بأن تتحول إلى (سيسندلا كامبتريس) طيلة حياتها
دون ذنب جنته ..

شكرتها وأنا أنصرف ، وقلت :

- « بالمناسبة .. أنا لم أحرقها .. الشيطان فعل..»

ضحكت من جديد ، وهتفت :

- « كذا يقول ابنى حين أسأله عن سبب كسر
المزهرية .. »

لكنى لم أكذب لحظة فيما قلت ..

* * *

إن الليل يدنو سريعًا ها هنا .....

* * *

- « سيدى .. إنها آخر فرصة لنا .. يجب اعتقال
(جابرييل) و (جيديون) و (هانس) حالاً ! »

وكالعادة احتقن وجه المدير ..

صحت أعزز طلبى :

- « صدقنى .. أنا لا أطلب هذا للتسلية .. بل
لأنهم خطر داهم .. إنهم ممسوسون يا سيدى ..
ممسوسون .. »

وازداد وجه المدير احتقانًا كالطماطم .. سينفجر حالاً ليلوث المكان كله بالدماء .. أخيرًا استطاع الكلام :

ـ « د. (عبد العظيم) ! هل تمزح ؟! »

ـ « لا يا سيدى .. لكن دعنى أحك كل شىء .. »

وظللت أتكلم حتى التاسعة مساء ..

* * *

١٠ ـ مقالة عن الذعر المبهم ..

أشياء تحدث ليلاً ..

حقًا هناك أشياء رهيبة تحدث نهارًا .. لكن خير الأشياء الرهيبة هو ما يحدث ليلاً ..

* * *

ها هو ذا موقف آخر يريك ما أعنيه ..

المدير يصغى إلى قصتى باهتمام .. من الواضح أنها كلام فارغ .. لكنه كلام فارغ شديد التعقيد إلى درجة تجعل نفيه عسيرًا بعض الشىء .. أخيرًا تنهد ، وضغط على زرّ (الدكتافون) :

ـ « أرسلى فى طلب (جابرييل) وبروفسور (جيديون) و ... » .

ورفع رأسه يسألنى :

ـ « ومن ؟ ـ »

ـ « و (هانس) الألمانى .. وربما (موجازا) لو أفاق من الغيبوبة .. »

« و (هانس) .. »

ثم أغلق الجهاز ، وعقد أصابعه تحت ذقنه الشحمية كأنما يفكر فى الخطوة التالية .. وسمعنا صوت مكبر الصوت يتردد ..

بعد دقائق جاء صوت السكرتيرة من جهاز (الدكتافون) :

ـ « لا أثر لهم فى (سافارى) يا سيدى .. يبدو أنهم غادروا الوحدة ! »

كان للخبر وقع الصاعقة علينا ..

غادروا الوحدة ؟ ولكن لأين ؟ ولأية غاية ؟

قرّب المدير فمه من الجهاز :

ـ « هل أفاق (موجازا) من الغيبوبة ؟ »

ـ « لا يا سيدى .. هو فى العناية المركزة ، ويبدو أنه سيموت فى أقرب فرصة ممكنة .. »

أغلق الجهاز ، ونظر إلىّ دون كلام .. بعد دقائق قال :

ـ « حسن يا (علاء) .. الأمر واضح .. أنا لا أصدق حرفًا عن موضوع الاستحواذ هذا .. لكن لا يمكن إنكار أن تصرفهم غريب .. »

ثم حكّ عنقه مفكرًا :

ـ « هل لديك فكرة عن المكان الذى ذهبوا إليه ؟ »

ـ « بالطبع لقرية الساحر يا سيدى .. »

ـ « ولماذا ؟ هل يوجد سبب قوى ؟ »

ـ « المستحوذ يحاول العودة إلى جذوره لسبب ما .. »

* * *

وكان الباقى سهلاً .. لقد استولوا على السيارة (اللاندروفر) الخاصة بـ (سافارى) ، ولم يستطع أحد الاعتراض لأن (جيديون) له سن ونفوذ وسلطات المدير ..

وهكذا صار الأمر واضحاً ..

قال لى المدير :

ـ « هل ستلحق بهم ؟ »

كان الظلام قد خيم على المكان ، وبدا أن الرحلة ستكون عسيرة خطيرة حقًا .. لكننى كنت موقنًا أن أية خطوة لابد أن تتم فى الظلام .. لماذا ؟ لأن الأشياء الرهيبة تحدث ليلاً .. هذا معروف ..

فى تردد قلت وأنا أنزع معطفى :

- « لا أدرى .. لكن لا يوجد حلّ آخر .. على الأقل أنا بحاجة للقاء زعيم القرية كى أحصل على قلادة أخرى .. »

- « ستأخذ معك سائقًا و (بودرجا) .. »

- « إن علاقتى بـ (بودرجا) هى كعلاقة التوءمين السياميين لا يمكن فصلهما إلا بجراحة .. »

وتمت الاستعدادات سريعًا .. إن القرية دانية على كل حال ، وليس الإعداد لها عسيرًا كالحملات ..

ولم يمضى إلا نصف الساعة حتى كانت السيارة تتحرك ـ سيارة (لاندروفر) بدورها ـ عبر الطرقات الوعرة قاصدة قرية (مولوك) التى أصرّ على نسيان اسمها ..

قال (بودرجا) وهو يتواثب فى الهواء مع المطبات :

- « هل هذا وقت مناسب لرحلة كهذه ؟ إننى سأهشم عنقى فى حادث أليم .. »

قلت وأنا أطير فى الهواء بدورى :

- « كل الدلا .. دلائل .. تقول إنك تعود سالمًا دائمًا يا (بود .. بود) .. (بودرجا) .. سنلحق بـ .. بهم حالاً .. »

وعلى ضوء الكشافات كنت ترى الطريق الوعر ، وترى قمم الجبال سوداء مسربلة فى السواد من بعيد .. كأنما هى أرض لم يرها بشرىّ قبلنا .. الويل لمن ذهب هناك ، وطوبى لمن بقى هاهنا ..

على ضوء الكشافات نرى مجموعة من العمال عاكفين على نقل ألواح خشبية إلى ظهر شاحنة .. يتوقف السائق بجوارهم ويسألهم .. ثم يقول وهو يدير المحرك :

- « يقولون إن سيارة كسيارتنا مرّت هاهنا منذ ساعتين .. »

قلت وأنا أسترخى فى مقعدى :

- « نحن فى الدرب الصحيح إذن .. »

ونواصل الوثب فوق المطبات ...

★ ★ ★

وعندما وصلنا إلى القرية أخيرًا ، كانت الحادية عشرة مساءً .. ومن البداية أدركنا أن شيئًا ما مهيبًا يحدث ..

هذا الصمت والظلام التام ، ثم المصدر الوحيد

للضـوء القـادم من عـدد لا حصر لـه من المشـاعل لا يعلم سوى اللّه عددها ..

إن التجمعات الليلية التى تحمل المشاعل لهـا رهبة لا توصف وهو مشهد يعرفـه جيدًا كل من رأى دفن ميت فى ريفنـا المصرى ، على ضـوء (الكلوبات) حين يعتبر الريفيون طلوع الشمس على الميت خـارج قبره عارًا أى عار ..

لم يكن هنا ميت ، ولم تكن هناك جنازة ..

فقط وجوه زنجية واجمة .. وعيون لامعة زائغة .. ورائحة عرق تؤذى الأنوف ..

وفى منتصف الحشد وقف الزعيم إياه ـ البـدين الأصلع ـ مقطبًا وجهًـا ارتسـمت عليـه كل إمارات الخطورة ..

دنونا نجرّ قدمًا وراء قدم ..

فما إن رآنا السود حتى أفسحوا لنا ممرًا ، ورأيت الزعيم يرمقنا فيتعرفنا.. تبادل كلمات مع (بودرجا) ، راح هذا ينقلها لى :

ـ « يقـول : لقـد حضرنا فى الوقت الملائم لنرى

تنصـيب سـاحر القبيـلة الجديد الذى سيحمل اسـم (مولوك) ! »

نظرت حولى فلم أر أحدًا منهم ..

لكن العربة (اللاندروفر) كانت واقفة هناك ، وقد بدا عليهـا الإنهـاك بعد ليلـة كئيبـة .. وكأنهـا تسـتعد للنعاس ..

سألت (بودرجا) ليسأل الرجل :

ـ « أين هم ؟ »

أشار الزعيم إلى كوخ من الطين الجاف ، ولـم يقل شيئًا ..

عدت أسأله :

ـ « ماذا يفعلون بالضبط ؟ »

كان الجواب شافيًا :

ـ « يستعدون .. »

ـ « إذن لماذا لانفتك بهم ونحن كُثر ؟ »

ـ « لا أحـد يجـرؤ .. إنهم يملكـون ذات قـوى (مولـوك) الأصليـة ، وأنتم قد أضعتم القلادة التـى كانت تحمينا .. »

هنـا وضعت يدى علـى كتـف الزعيـم الشـحيمة ، وسألت (بودرجا) :



مشهد غريب .. بل ومضحك لو فكرنا فى وقار (جيديون) وكبريائه الدانيين من درجة السماحة ..

- « لقد كانت القلادة تحوى خنفسة هائلة الحجم .. لكنها عادية جدًا .. ما هو تفسير ذلك ؟ »

قال الزعيم وهو يرمق الكوخ فى توجس :

- « يقولون إن (مولوك) يتخفى فى شكل (جندب) .. وخنفسة النمر تفتك بالجنادب .. ويقولون إن روح الخير تتخفى فى شكل تلك الخنفسة .. لهذا يهابها (مولوك) ويتحاشاها ..»

تفسير شاعرى لفظى أكثر من اللازم .. لكن الأمر كله يتحدى التفسير .. والحقيقة ها هنا هى أن (مولوك) كان يخاف القلادة ، والقلادة لم تحو سوى خنفسة .. فما معنى هذا ؟ .

فى اللحظة التالية خرج (جيديون) من الكوخ ..

أقول إنه (جيديون) فقط للدقة .. لكنه - والحق يقال - كان يختلف عنه فى كل شىء .. بدءًا بالنظرة الثاقبة المتوحشة فى العينين ، ومرورًا بالجذع العارى والخصر الذى أحاطه حزام ملىء بجماجم الحيوانات الصغيرة ، والقدمين الحافيتين ..

مشهد غريب .. بل ومضحك لو فكرنا فى وقار (جيديون) وكبريائه الدانين من درجة السماحة ..

ورأيت القوم يتراجعون هلعًا .. بعضهم جثا على ركبتيه وانتحب .. وتساءلت فى سرى عن دور هذا الساحر الذى يثير رعب قومه ..ما نفعه إذن ؟

قلت لنفسى وسط هذه المعمعة :

ـ « لم تعد هناك مشكلة .. لقد ظفر هذا المجتمع بثلاثة سحرة مرة واحدة .. فقد واحدًا فاستعاد ثلاثة .. سيبقى (جيديون) و(هانس) و(جابرييل) ها هنا يثيرون الرعب حتى يموتوا .. وأعود أنا إلى (سافارى) إلى حيث ينتهى هذا الكابوس .. لا أنانية فى الأمر .. هؤلاء القوم كانوا بحاجة إلى ساحر ، وعوّدوا أنفسهم على وجود واحد .. من دونه يجف الضرع ويهلك الزرع وتهوى السماء على الأرض .. ليكن .. لهم ما أرادوا إذن .. أما أنا فراحل الآن .. »

وفى إشارة بليغة أومأت إلى (بودرجا) أن وقت الانسحاب الكيّس قد جاء .. المهم ألا يشعروا بنا وسط هذه الفوضى ..

لكن ..

يقولون فى مصر : دخول الحمام ليس كالخروج منه ..

إن هذه الأمثال تكون دومًا صادقة ..

صادقة إلى حدّ يثير الغيظ !

* * *

١١ - عن الجنادب والخنافس..

أشياء تحدث ليلاً ..

وكما قلت وسأقول دائمًا : هنـاك أشياء وأشياء .. أشياء تحدث نهارًا يمكن فهمها ، وأشياء تحدث ليلاً نقبلها كمـا هى .. ونحمد اللّه على نجاتنا منها لو نجونا .. ونطلب رحمته لو هلكنا ..

أشياء تحدث ليلاً ..

* * *

هذا موقف يفسر ما أقول :

فى الظـلام الـذى استباحته المشـاعل ؛ يرفـع (جيديون) يده مادًّا إصبعه السبابة فى رسالة بليغة جدًّا : لا تتركوا هؤلاء يرحلون ..

ثم يدنو بتؤدة منا وقد أحـاط بنا السود ، ليرمقنى فى تهكم .. عيناه صارتا ثقيلتى الوزن حقًّا كما يقول المصـورون .. أهميتهمـا وتأثيرهمـا يفـوقـان كـل ما عداهما ..

توقعت أن يقـول عبـارة سخيفة ما على غـرار :

هاها ! لقد وقعتم فى قبضتى .. أو : يـا حمقى .. أتحسبون أنكم قادرون على تحدى (مولـوك) ؟ لكنه كان محددًا .. لـم يقل شيئًا .. فقط ظلَّ يرمقنى فى صمت ..

بعد دقـائق رأيت (جـابرييل) يخـرج من الكـوخ ، و(هانس) من خلفه .. وكانا يرتديان المئزر ذاته .. وكلاهما له العينان ذاتهما ..

ولول (بودرجا) كالثكالى :

ـ « دكتور ! إنهم شياطين ! أرواح شريرة ! »

لم أردّ .. لكننى وافقته على كل حرف ..

وعرفت أن (جيديون) يريد سجننا فى كوخ طينى مجاور لكوخه .. طبعًا حتى يقرر ما يجب عمله معنا ..

* * *

يقتادنى الزعيم من معصمـى نحـو الكـوخ الطينـى ، وجـوارى يمشـى (بـودرجـا) مطلقـًا صرخـاته التـى لا تنتهى .. ويقتاده زنجى آخر ..

همسًا يتكلم الزعيم.. من ثم صرخت فـى (بودرجـا) كى يخرس قليلاً .. أريد أن أعرف ما سيقوله الرجل..

بدأ الزعيم يتكلم ، و (بودرجا) يفسر لى :

ـ « الزعيم يقول إن خنفسة النمر تعيش فى الرمال خارج القرية .. يقول ألا نحزن لأنه سيبحث عن واحدة أو اثنتين ، ويصنع لنا قلادتين تحميانا من (مولوك) .. »

بدا الاهتمام فى صوتى وأنا أسأله :

ـ « حقًا ؟ وهل هذه الخنافس مضمونة ؟ »

ـ « يقول إن بعضها مضمون .. وهو قد ورث القلادة عن آباء آبائه فلا يعرف أى سحر استعملوه فى قلادتهم هذه .. إنه سيرتجل .. »

ـ « خنفسة تظل حيةً منذ عهد الجدود ؟ »

ـ « هكذا يقول ...... »

هنا خطرت لى الفكرة .. فكرة واهية لكن لا بأس بها ..

ـ « (بودرجا) .. هل لك أن تسأله عن أماكن هذه الخنافس ؟ »

تبادلا بضع كلمات .. راح الزعيم يشير بذراعه المكتنزة نحو الشرق .. يقول كلمات بالتأكيد على غرار : عند الجبل الصخرى .. عندما ينحدر ظلّ القمر .. إلخ .....

فى النهاية قال (بودرجا) :

ـ « إن وصفه ليس عسيرًا .. لكن ماذا تفكر فيه ؟ »

ـ « الآن قل له إننا سنهرب ! »

ـ « أتمزح يا دكتور ؟ »

ـ « بالعكس .. وأعتقد أنه لن يقاومنا كثيرًا وإن تظاهر بذلك .. »

تبادل (بودرجا) بضع عبارات مع الزعيم .. ورأيت الأخير يبتسم فى فهم .. ووجهه الأسود يلتمع فى رضا .. وعيناه تغمضان ..

ـ « قل له إننا سنهرب شرقًا .. »

ـ « ما الغرض يا دكتـ ..... ؟ »

فى اللحظة التالية جذبته من يده ، ورحنا نركض مبتعدين ..

انتفض زنجيان يريدان اللحاق بنا ، لكن نظرة واحدة إلى وجه الزعيم جعلتهما يفسحان لنا الطريق ..

فما إن ابتعدنا عن سور القرية بضعة أقدام ؛ حتى سمعنا الزعيم يصرخ مستغيثًا .. الغريبان قد هربا .. الحق أنه كان ممثلًا بارعًا حقًا ، وسادت الفوضى والهرج والمرج ..

* * *

كنا نركض لاهثين ..

وسألنى (بودرجا) وقد تدلى لسانه إرهاقًا :

- « دكتور ! إلى أين ؟ »

- « يا .. يا .. ياله مـ .. من سؤال ! ظنـ .. ـنتك فهمت! نحـو أعشاش الخنافس التى وصفها هاها .. لـ .. لك الزعيـ .. ـيـ .. ـم ! »

وهكذا انحدرنا فوق مجموعة من الصخور الرملية.. لنعبر ممرًا ضيقًا فى ضوء القمر الفضى ..

وأخيرًا أسندنا ظهرينا إلى جدار حجرى طبيعى ، ورحنا نعبَّ الهواء بجرعات كبيرة ..

همس (بودرجا) :

- « لم نبتعد كثيرًا .. هل تنتظر أن يلحقوا بنا ؟ »

- « بالفعل أنتظر أن يلحقوا بنا ! »

- « وعندها ؟ »

- « أدعو الله أن يكون حدسى صائبًا ! »

وركعت على ركبتىَّ أتأمل الأرض الرملية .. كانت الرؤية مستحيلة لكنى أستطيع أن أميز نقاطًا سوداء هنا وهناك ..

هل هى ما أريد ؟

* * *

ستة أضواء تتوهج ..

بالواقع لم تكن شموعًا .. ولا كشافات .. بالواقع لم تكن من أى مصدر صناعى .. وخيل لى أن كل ضوأين ينبعثان من جانبى رأس شخص ما .. بالأحرى كان ثلاثة أشخاص يدنون منا ببطء ..

كانوا يعبرون الممر ما بين الصخور مسترشدين بهذا الضوء العجيب .. وأدركت أنهم (مولوك) .. (مولوك) الذى وزَّع ذاته على ثلاثة أشخاص يتصرفون ويفكرون مثله ..

وكانوا آتين من أجلنا ..

شعرت بكف (بودرجا) المبتلة تعتصر كفى .. كان يحلم بالهرب ، لكنى ضغطت على كفه فى صرامة ..

لم تكن شجاعة منى .. بل هو يقين بأن الأمر يفوق المقاييس المادية المتعلقة بالكرّ والفرّ .. وأن مجرّد الركض لن يحمينا من هؤلاء ..

الآن أرى قامة (جيديون) الفارعة .. وقامة (هانس) الناحلة .. وقامة (جابرييل) المنحنية ..

هناك فرصة لا بأس بها فى أن أكون حمارًا ؛ عندها ما الذى يقدر حمار على عمله حين يواجه ثلاثة شياطين كهؤلاء ؟

وابتلعت ريقى وانتظرت ..

★ ★ ★

كان (جيديون) أول من سقط ..

نظر لقدميه .. ضرب الأرض عدة مرات .. صرخ..

ثم جثا على ركبتيه وهو يطلق عواء لم أسمع مثله من قبل ..

وبعدها رأيت (هانس) و (جابرييل) يسقطان أرضًا وهما يصرخان كالملسوعين ..

يتلويان .. الرمال تتناثر فى كل مكان ..

ثم .. يهمد كل شىء .. لا صوت سوى الأنين ..

★ ★ ★

(بودرجا) هو أول من مزّق الصمت .. وكان ما قاله طبيعيًا :

- « ماذا حدث يا دكتور ؟ »

قلت وأنا أشعر بالدماء تعود إلى رأسى :

- « اليرقات .. خنفسة النمر تدفن يرقاتها فى وضع رأسى تحت الرمال ، وتظل رءوس اليرقات خارج الرمل متأهبة للافتراس .. لقد شعر (مولوك) بها .. ولكن كان ذلك متأخرًا جدًا .. لقد افترست اليرقات قوته الشريرة »

همس وهو يرتجف كورقة :

- « هل تعنى أنه مات ؟ »

- « لا أدرى .. لكن خطره تدنّى .. »

- « وهل تعنى أنهم ماتوا ؟ »

- « يمكننا أن نتحقق .. »

وبحذر وكأننا نتلمس ثعابين غافية ، غادرنا موضعنا .. ودنونا من الثلاثة المهاجمين ..

جثوت جوار (جيديون) وتحسست نبضه بحذر .. لم يمت بعد ..

ببطء فتح عينيه ، ولما رأيت النظرة الغبية الخاوية من المعنى فى عينيه بدأت أطمئن ..

ازداد اطمئنانى حين غمغم فى إعياء بالكلمة الخالدة :

- « أين أنا ؟

★ ★ ★

قال (بارتلييه) وهو يغلق الملف أمامه :

ـ « قصة لا تصدق يا (علاء) .. مس شيطانى وخنفسة .. ويرقات .. وجنادب .. وحالة جنون وفتى لثلاثة أطباء .. بل أربعة إن لم نتجاوزك .. »

وعقد كفيه تحت ذقنه ، وغمغم :

ـ « بالطبع لا أصدق حرفًا .. لكنى سعيد بالنتيجة .. لقد عادت المياه إلى مجاريها وسادت العدالة وعاشت الحملان جوار الأسود .. »

سألته وأنا أستعد للنهوض :

ـ « والجثة ؟ »

ـ « حولها رجالنا إلى رماد .. »

لم أكن مستريحًا لفكرة حرق البشر أحياء كانوا أو موتى ، لكنى استطعت إلى حدٍ ما فهم المدير .. ما كان يملك حلاً آخر ..

ـ « و (موجازا) .. هل أفاق من الغيبوبة ؟ »

ـ « ماذا ؟ ألم يخبروك بعد ؟ »

ووضع عويناته ليواصل قراءة أوراقه مردفًا :

ـ « لقد اختفى من (سافارى) تمامًا ! »

★ ★ ★

أشياء تحدث ليلاً ..

هناك أشياء وأشياء .. لكن (موجازا) كان يتحسس طريقه فى الدغل عالمًا ـ بشكل ما ـ أنه ينتمى إلى عالم الليل ، وأن عليه ألا يهاب شيئًا فى رحلته الطويلة .. إنه هو الخوف ذاته ..

ماذا سيحدث بعد ذلك ؟

حقًا لا يمكننا أن نعرف .. فهذا خارج نطاق عملنا فى (سافارى) ..

د. علاء عبد العظيم

أنجاوانديرى



سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكي يظل حيًا وكي يظل طبيبا

أشياء تحدث ليلاً

هناك أشياء وأشياء ..

أشياء لاتحدث إلا نهارًا ، وأشياء لاتحدث إلا ليلاً .. هذه الأخيرة تتباين دومًا .. لكنها دائمًا مفزعة أو مخيفة أو بشعة أو ممنوعة .. هذا شيء طبيعي .. وإلا فلماذا لاتحدث إلا ليلاً .



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم
الآن تراه !

يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع